محمد في القرآن

سيدي محمد ولد جعفر

اهداء

هذا العمل مهدىً مني، إلى أخ لم تلده أمي ، إنه الأستاذ المهندس فاضل أ بو سجاد، الذي لم تطأ قدماه النظيفتين قط أرضا بها نيطت عني تمائمي، قذفت بي الأقدار إلى بلاد فارس حيث كنت وأياه على موعد لم أفكر فيه، فهو القادم من بلاد الحضارات، بلاد الرسول الأول نوح، ثم إبراهيم ويونس وعليا والحسين صلوات الله وسلامه على الجميع، وانا القادم من بلاد صنهاجة التي أوات اسلافي المطاردين من بلاد العرب التي شرفت بهم.

التقت روحنا فتآلفت، يجمعنا حب صادق وعميق للجناب النبوي الشريف وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويجمعنا حب كل من ذب عن عرضه بالقلم والسيف، ويجمعنا بغض كل من آذاه في حياته أوفي آل بيته.

أهدي لأخي فاضل أبو سجاد هذا العمل وانا ممتن لجزيل افضاله علي فقد كان نعم السند ونعم الاخ.

واهدائي موصول الى ابوي الذين ربياني على الاسلام والاخلاق المحمدية فاحسنا تربيتي، راجيا أن يتقبل مني هذا العمل الذي اجتهدت فيه ذابا عن عرض رسوله، وأن يجعله في ميزان حسناتهما وان يجعلني جزء من عملهما الصالح المقبول فقد أخذا بيدي وأنا لم اثغر علماني كيف اداعب القلم، وكيف اخر ساجدا لله وحده.

واهداء خاص مني لشقيقة روحي مريم محجوبة بنت الشيخ ماء العينين زوجتي الفاضلة الحنونة التي وقفت الى جنابي في المراحل الصعبة من حياتي فوجدت فيها حنان الأم واخلاص الأخت.

بين يدي الوعد الحق.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين.

صحف كثر حبرت، ورسمت عليها لوحات بديعة محملة بعناوين مختلفة ومعبرة، واصفة ما وصلها وما توصلت له من حقائق عن حامل آخر أوامر الخالق للأنس والجن بأنه عين الحقيقة، البعض منهم تتبع ما يعتبره مسيرة الإنسان الأول مذ وطأت قدماه هذا الكوكب عجيب الصنع، متحدثين عن كيف تشكلت المجموعة (العرب) التي ينتمي لها هذا الفذ، مسبلين عليها وابلا من الصفات الحميدة والافضلية السلالية حتى كأنها خلقاً آخر، اختيرت لها نطف وأرحام وأصلاب غير تلك التي تجمع البشر؟.

ولد برأي محمد بن عبد الله كما يولد أي إنسان في أي زمان وفي أي مكان، وأنا بهذه الفقرة منحاز لرأي الذي سأعتمد في هذه الدراسة، بناء على أن ليلة أو يوم المولد الشريف لم يذكر الوحي أن أحداثا غير مألوفة شهدها الكون- كما هو منتشر في الثقافة الشعبية – كخمود نار فارس وكون بحيرة طبرية غاضت، وان الاصنام تساقطت، تماما مثل الشهب التي طاردت مسترقي السمع من الجن بعد نزول الوحي فانتبهوا إلى أن أمرا عظيما قد حدث ولأن كبار المكذبين لخبر الوحي وهم في المجمل حضروا ليلة أو يوم المولد، لم يشذ أحد منهم

ليُذكر بما شُهود من ظواهر غير مألوفة كدليل على ما بَشربه هذا الفتى، أو دليل على الصاق صفه الساحر به حيث شُوهدت غرائب حين ولد.

وراعيه وكافله والمنافح عنه ومادحه سيدنا أبا طالب عليه السلام، لم يرد في أشعاره ما يفيد بأن ليلة أو يوم المولد كان بهما ترميز على الملء الأعلى أن يتذكره كدليل صدق ما جاء به.

ستكون لي تأملات أحاول من خلالها الابتعاد عما سطر الذين سبقوني على اختلاف مشاربهم الفكرية، واهتماماتهم العلمية، عند ما يتحدثون عن هذا الموضوع، المتعلق بشخصه صلوات الله وسلامه عليه وآله، محاولا ابراز هدف واحد بأساليب وطرق متعددة يُجهد أصاحبها الأيمان، كلُ بطريقته بأن ما قدم هو الأدق والأصدق والأليق بمقامه.

سأخرق هذه القاعدة، وأتحدث عن نفس الشخص لنفس الهدف، لكن بعيون عصرنا الذي يعتمد التحليل وينبذ التوصيف، ويمتهن التجريد ويقصي العاطفة، لكلٍ أوصافه ولي رأي في تلك الاوصاف، أقبل منها ما أراه هادفا وغير مخالف لقواعد العقل الذي هو المشترك بين البشر بغض النظر عن أي شيء آخر يفرقهم.

سأناقش ما أراه جديراً بالنقاش أو التحليل، وأضرب صفحاً عما أراه غير جدير بأن يذكر لمخالفته للقواعد التي يقبل العقل أو لمجانبته لما ذكر الوحي، ورغم كثرة هذا النوع من الاخبار في الثقافة الروائية قد يجد النزر منه طريقا إلى ما سأتناوله، غير مهتم بمناهج الاقدمين المتعلقة بصدق أو كذب من استقوا منهم الاخبار، مصدري في الأغلب واحد القرآن [الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[1]] الأمة متفقة على شكله مختلفة في تعاطيها مع مضامينه متخاصمة حول ترميزه.

حديثي سيكون عن محمد بن عبد الله في القرآن، لن أتحدث عن حواضنه الأسرية ولا محيطه الاجتماعي، ولاعن عصره وقومه، إذ لا جديد يمكنني أن أضيف للموضوع مما يفيد المُتلقي، سأؤطر الموضوع بممهدات أعتقد أنها ضرورية ومساعدة على فهم سياقات بعض الأحداث التي ستتناولها هذه الشذرات باختصار، ثم أنطلق بعد ذلك الى لحظة الانقلاب الكوني الذي غير مسار البشرية حسب المحفوظ من تاريخ الأمم صاحبة التمكين والسيادة والتفوق في بلاد بيزنطة وفارس ومن صاقبهم من أصحاب الديانات والثقافات والدول وأنماط حكمهم وما عرفوا به من عدل وجور، وكذلك داخل شبه جزيرة العرب وأكنافها ونحل أهلها.

---

[1] سورة فصلت الآية 41

الفصل الأول

ممهدات الانقلاب الكوني.

من الصعاب التي تواجه كل باحث في جانب من جوانب مسيرة هذا الفذ العظيم والتي قد لا يفي العمر بتفكيك عُقدها الخالدة هي تلك الجدران المحكمة بدقة، والحاجبة لحقيقة النور المنبلج من دياجير ظلمة حالكة ، تغطي مجتمعا تحصنه جغرافيا موحشة عن التلاقي والتلاقح مع مجتمعات لها أقساط من الحضارة والمعارف، ألفت تدوين الأحداث في محيطها وتطورات أمم قبلها وأخرى تجاورها وتبادلها وتتبادل معها المعارف والأواني والنمارق والبُجد، فترتب عن عزلة أمة العرب هذه أن بقيت أجزاء من مسيرة الوعد الحق غامضة، أو مجهولة أو منسية إن أحسنا الظن بمدوني تاريخ المسلمين الأوائل وقبلنا أنهم لم يتعمدوا تركها حيث لكل سببه الذي قد يكون له وجاهة، لأن المحيط الذي تم فيه التدوين لم يكن متسامحا لنقل ما صح من تلك المسيرة، أو ليغض البصر عن أي شك في بعض ما شُهر عنها.

بأخذ هذه الابعاد التي شكلت صعابا واجهتني أسجل بشيء من التحفظ - طبعا - أن سيرة الرسول ومغازيه والأحداث المتعلقة بأخباره وكل شيء مشهور عنه، كتبه الأمويون، السلالة المعادية هي وأسلافها الأقربين والأبعدين على حد السواء لدعوته، والمنتقم أمرائها لجل ما يتعلق بهذا العظيم، تذكروا فقط مقولة معاوية بن ابي سفيان عن الرسول" دفنا دفنا[2] "

الأمويون لا يعرف الجل عنهم سوى أنهم البيت الأعز والأذكى ولأثرى من كل بيوتات قريش، لكن من اطلع على بعض "الشذرات" التي نجت من مقاص الرقابة القاص" رقاب" كل من يدون خارج المرسوم والمحدد بدقة، وما تحمل تلك الشذرات الشحيحة التي تظهر الكثير من المعلومات المخفية، معلومات على قلتها وكونها تأتي مجتزئة ومبتورة من سياقاتها عند البعض خوفا أو تسترا ، فإنها تنبه الباحث إلى أن هذا الخبر يحتاج استنطاقا وتأملا عميقين، بل وإعادة قراءة ،وهو ما يقتضي التنبه للأثر السياسي الذي قد يكون مساعدا على تتبع ما يمكن أن يكون حلقات

---

[2] الزبير بن بكار الموفقيات ص 576 والمسعودي مروج الذهب ج4 ص4 وابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج2 ص 537

مفقودة أو متروكة لسبب مَّا أو داعمة لتوجه سياسي ما، أو مذهب ديني ما.

من تلك المخفيات متعلقات خلاف سيدنا هاشم و"أخيه عبد شمس" خلاف توج بنفي الأخير من مكة، ثم تكرر بين سيدنا عبد المطلب وحرب بن امية ختم باستعباد الأخير عشر سنين حتى لا تجز ناصيته، وشذرات عن عاهرات مشهورات كن يمارسن البغاء في المخادع الزوجية، مخفيٌّ أن من تلك الارحام الملوثة بنطف مختلطة ولد بعض حكام الأمة في فجر تاريخها وساسوها وحددوا مسارها وحتى تدينها.

شبه كيدية في السير التراثية.

أولا: شبهة فقر: العائلة خلافا لما هو مرسخ في الاذهان من قيم نبيلة عن عرب ما قبل النبوة من تآزر وتكافل، ورفق بضعيف وحُنويٍ على يتيم وزهد في مال وبذل له، فإن بعض الشذرات المدونة من سير اهل تلك الحقب لا تفيد ذلك، بل تفيد أنهم كانوا مجتمعا ماديا، المال فيه هو معيار مكانة الأفراد والقبائل ومصدر النفوذ والجاه والتمكين، من اجله يسترق الأخ بن أخيه والخال بن أخته، حيث لا يمكن لمعدوم أن يتوق لزواج من بنت عمه الغني أحرى أن يسود ويتصدر مجالس القبيلة، ولهذا حواضن من القرءان الكريم، فعديد الآيات تحض على الانفاق والرفق بالضعيف ومواساة المحتاج بل تربط بين عدم إطعام المسكين والكفر بالله العظيم في ثلاث موضوعات، فلو كانت هذه الفضائل سائدة لما كان هناك أسبابا للحض عليها من الخالق ،وهو ما يعني أن المجتمع لم يكن متكافلا وكان المنفقون فيه قلة، ولعل ذلك يفسر مبالغات الشعراء في مدحهم حيث أسماء البعض منهم واخبارهم ما زالت متداولة الى يوم الناس هذا.

مع ذلك الوضع المكرس للطبقية يُصر أصحاب المدونات التاريخية استجابة للثقافة السياسية السائدة في زمانهم على تقديم رسولنا وعائلته ضمن العائلات المعدومة، مما يعني ضمنا أن لا شأن لها قبله، رغم تسجيلهم معلومات تفند المشاع عن الهاشمين، وهنا سنعيد انتاج حدثين وردا عند جل السيرين سواء كانوا كتبة مغازي، أو مؤرخين أو محدثين، يكشف تأملهما ونقاشهما زيف ما رسخ، من تلك الشذرات ما سجلوا عن حملة الفيل واستيلاء ابرهة عند تخوم مكة على ابل سيدها" سيدنا عبد

المطلب" الذي انتقصوه بالقول(إنه أتى ابرهة طالبا ابله فقط ؟) وكأن غرض الحملة لا يعنيه!! لأن "للبيت رب سيحميه"؟.

هل يعقل أن يكون ابرهة -صاحب الجيش العظيم كما وصفوه-، ليأخذ فقط ذوداً لزعيم المدينة القادم لتدمير معبدها، أم أن الإبل كانت بالمئات؟ لا نناقش هل قصة الإبل صحيحة أم مختلقة لكنها حُمِّلت أن عبد المطلب لم يفكر في حماية البيت، وإنما كان همه نوقه، علما بأن بعض قبائل العرب الأقل شأنا تعرضوا لجيش ابرهة لصده، كما في السرديات التاريخية، حيث ذكر ابن كثير في بدايته أن رجلا من اهل اليمن يدعى ذو نفر " دعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريده من هدمه واخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نقر وأصحابه، .. ثم مضى ابرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي، في قبيلتي خثعم، وهما شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيرا فأتى به [3]" وكان شاهدا عن نزول العقاب بجيش أبرهة حيث وصف الحدث في ابيات منها:

حمدت الله اذ أبصرت طيرا	وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل	كأن علي للحبشان دينا

بل نجد من الشعراء من صرح بذود سيدنا عبد المطلب عن الحرام كما سيأتي.

إذاً العقل والمنطق يقولان إن إبل عبد المطلب كانت بالمئات، أولم يحدثونا بأنه فدى نجله سيدنا عبد الله بمئة ناقة كوماء؟ وأنه نافر حرب بن أمية على مئة ناقة وعشرة عبيد وعشر إماء؟ ولا يقف دس التنقيص عند هذا المستوى بل يقولون إنه أمر قومة بالاعتصام بالجبال وترك المدينة خالية

[3] ابن كثير البداية والنهاية ج2 ص212

لجيش الغزاة دون مقاومة؟ لِمَ لم تهجو قريش رسول الله بتخلي جده عن الكعبة وتركها للغزاة؟ كل هذا لم يحدث لكن العكس حدث حيث نقلوا أن نفيل بن عبد العزى الحكيم مدح سيدنا عبد المطلب في قصة منافرة حرب بن أمية له وأن مما قال:

ابوك معاهر وابوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

لا أريد أن أثبت أن بني هاشم كانوا العائلة الأكثر ثراء لكنني أعتقد أنها لم تكن الأكثر فاقة، أولم يحدثونا بأن حجل بن عبد المطلب كان "يلقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله" أولم يذكروا اخويه العباس وأبا لهب في طبقة أثرياء قريش؟ ام ان ذكرهم للعباس سببه ملك بنيه؟ وذكر أبا لهب للتشهير بالهاشمين بأنهم كانوا مثل قومهم في عداوة الرسول؟.

لاشك أن الجانب القصصي وخاصة عنصر التشويق وأخذ المتلقي إلى حيث تريد السلطة الأموية من تقزيم عائلة النبوة الذي لا يمكن تسويقه إلا بشكل مُعَدٍ جيداً بادٍ على سرد هذه الأحداث، وقد انطلت الحيلة على المدونين الذين لم يكونوا ينتبهون للأثر السياسي على مروياتهم على ما يبدو، ولعلهم تعمدوا نسيان أن أشرف خصال قريش كانت اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة وهي مقسمة بين بني هاشم وبني عبد الدار وبني عبد العزى وبني أسد دون بني عبد شمس ونوفل وعليه كيف تسند هذه المهام لعائلة فقيرة؟ بل إنهم أخبرونا عن صفات هاشم التي ورَّث أبنائه واحفاده والتي ورثها هو من عبد مناف وما فوقه من اجداده.

يقول بن أبي الحديد "من صفات هاشم بن عبد مناف أنه كان غض الشباب وريق العمر طيب النشر باسم الثغر ... ومن -صفاته النفسية- أنه كان يتمتع بسعة صدر وسماحة طبع ولين جانب وقوة نفس وفهم احداث زمنه ووضع حلول لها" ونقل عن شيخه ابي عثمان الجاحظ المعتزلي قوله في هاشم "وكان اسم هاشم عمرو وهاشم لقب، فغلب هذا اللقب على اسمه حتّى صار لا يُعرف إلا به، وليس لعبد شمس لقب كريم، ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه

ويرفع من قدره ويزيد في ذكره، ولهاشم عبد المطلب سيّد الوادي غير مدافع، أجمل النّاس جمالاً وأظهرهم جوداً وأكملهم كمالاً، وهو صاحب الفيل والطير الأبابيل، وصاحب زمزم وساقي الحجيج، وولد عبد شمس أميّة -وأمية نفسه- ليس هناك وإنّما ذكر بأولاده ولا لقب له، ولعبد المطلب لقب شهير واسم شريف (شيبة الحمد)، وإنّما عرف عبد شمس بأبيه عبد مناف، وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلّب.... وشرف هاشم متّصل من حيث عدَّدت كان الشرف معك كابراً عن كابر، وليس بنو عبد شمس كذلك [4]"

ومن المعلومات المُكتم عليها أن عبد شمس جد الأمويين هو بن عبد مناف بالتبني وكان مملقا ينفق عليه سيدنا هاشم بن عبد مناف، لننقل هذه القصة باختصار من الواقدي، وتتعلق بمفاخرة يزيد ين معاوية لسيدنا عبد لله بن جعفر عليهما السلام، فكان مما قال عبد الله بأي آبائك تفاخر؟ أ بعبد شمس الذي كفلناه؟ أم بأمية الذي ملكناه؟ أم بحرب الذي أجرناه؟ فقال معاوية، أ لحرب يقال هذا؟ ما أحسب أن أحدا في عصر حرب يزعم أنه أشرف منه؟ قال عبد الله بل أشرف منه من كفأ عليه الإناء وجلله بردائه".

وراء الأوصاف الثلاثة قصصا تحدثت عنها كتب مذهبية باقتضاب وتلميح مخل بالمعنى، وآخرون تركوها للنسيان وقلة فصلوها، فقوله أ بحرب الذي أجرانه، أصل الحكاية أن قريشا كانت إذا صعدت طريقا به مرتفعا صعبا في احواز مكة لا يسمح لأحد بمشاركتها الصعود، وكان أحد بني زرارة من تميم تاجرا بمكة التقى بحرب بن أمية على عقبة فصعدها قبله، فهدده بمنعه من دخول مكة، فدخلها التميمي واناخ بعيره بباب الزبير بن عبد المطلب فسأله الزبير أطالب قرى أنت؟ أم مستجيراً فقال:

لقيت حربا بالثنية مقبلا	والليل أبلج نوره للساري
فعلى بصوت واكتبى	ودعا بدعوة معلن

[4] ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج15 ص 198- 206

ليروعني	وشعاري
فتركته خلفي وجرته امامي	وكذلك كنت أكون في اسفاري

فأجاره ورافقه هو واخوه الغيداق بن عبد المطلب إلى الكعبة فابصره حرب فخالسهما وصفعه وفر واحتمى بعبد المطلب في بيته فأكفأ عليه جفنة هاشم التي كان يهشم فيها الثريد لقريش سنوات المجاعة، واعطاه ردائه رمز حمايته له فتركه ابناء عبد المطلب، وظل الحقد يغلي في قلبه حتى طلب أن يراهنه عبد المطلب على مئة ناقة وعشرة عبدان وعشر إماء وجز ناصية إن سبق حصانه، فتسابقا فسبق حصان عبد المطلب فأخذ الرهن وقسمه على قريش، فقال له أمية اقلني من جز الناصية على أن تستعبدني عشر سنين فصار في حشمه عضريطا العضريط من يخدم الرجل مقابل طعامه ويتولى إطعام ضيافة[5] " .

ونقل بن الاثير في الكامل قصة مشابهة بين هاشم وأمية قال: "ورث هاشم بعد عبد مناف ما كان له من السقاية والرفادة والاطعام، فحسده أمية فتكلف وعجز، فشمتت به قريش فدعا هاشما للمنافرة فأبى والحت عليه قريش فتراهنا على خمسين ناقة والاجلاء عن مكة عشر سنين فتحاكما عند الكاهن الخزاعي، فحكم لهاشم فطرد أمية إلى الشام عشر سنين وعاد بعد وفاة هاشم فأراد ان ينتقم من عبد المطلب فنافره وغُلب أيضا.

لكن عند ما يتعلق الأمر ببني أمية يقدمون على أنهم العائلة المالكة لكل شيء، والتي يحتاجها كل الناس، رغم أن الشعراء لم يعرفوا لهذه العائلة ندى او مكرمة تستحق الإشادة، بل نجد ما يؤكد فاقتها حتى في العهد المدني، فقد نقل مسلم في صحيحه خبرا مفاده أن رجلين تقدما لخطبة فاطمة بن قيس فاستشارت رسول الله في أيهما تختار فقال لها " أما

---

[5] أبو الفرج علي بن إبراهيم انسان العيون في سيرة الأمين المأمون ج2 ص186 دار الكتب العلمية بيروت ط 1427

معاوية بن حرب فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فضراب للنساء[6] ".

ثانيا: شبهة خلاعة والد المطهر.

لا يتوقف كيد قريش وحقدها على هذه العائلة عند التقزيم ووصفها بالمعدومة، بل تجاوز إلى وصف والد سيدنا رسول الله عبدالله بن عبد المطلب، بأنه كان شابا خليعا، في قصة "ذهب النور الذي كان في وجهك" ملخصها أن مومساً دعت سيدنا عبد الله للفاحشة، -والفاحشة كانت أمرا شائعا وعاديا في مجتمعات عرب ما قبل البعثة- وانه تعلل بوجود والده، "استحى" ثم إن سيدتَنا آمنة بنت وهب شَرُفت بالحمل، هذه المرة عرض سيدنا عبد الله نفسه على المومسة، لتقول له "ذهب النور الذي كان في وجهك[7]"!. ايكم يرضى أن يقال إن أباه كان شابا خليعا، فكروا فالمتهم والد سيدنا رسول الله؟

لنتساءل عن فرية كون والد المصطفى كان شابا خليعا، من المُروج لها ومن المستفيد منها؟ علمتني قراءة سيرته العبقة انني كلما استوقفني حدث لا يليق بجنابه أجد أن سببه تستر على جرائم أتى بها أحد فئام الملء الأعلى أو سلفٍ لطليق متمكن يراد اخفائها ولفت الأنظار عنها، منّ الله علي بأن غُصت عميقا في مدونات التراث المهجورة فوجدت أنهاراً وجداولا نُضباً هُجرت حتى اندرست، بها من المعلومات المخفية ما أنار لي المياسم، وقادني إلى لواحب هدتني الى مهايع حقائق نقلت منها معلومات عن اسلافهم مغيبة بعيدا، وسأعرض النزر منها ثم لننظر معا من الذي خرج من صلب ورحم ملوث لصيق بالنسب الذي يُباهي به.

معلومات رسمت بمحابر على قراطيس منسية على رفوف الزمن، لأنها صادمة ومعبرة عما كان عليه اسلاف مروجي خلاعة والد متمم مكارم الاخلاق من الانحلال ، إنها معلومات محاطة بجدر عازلة عن رؤية ما سطرت أقلام تحت المراقبة، مانعة حتى من استراق سماع أحاديث خافتة لا تنبس بها شفاه إلا حيث تعتقد أن الرقيب لا يرى، ناثرة أخبار

---

[6] مسلم الصحيح ج4 ص 195

[7] تفاصيل القصة في سيرة بن هشام ج1 ص 178-179

بيوتات التمكين المكية العاهرة، فاضحة مجتمع الهاوية الذي تداركه سطوع النور المبين الساطع من بيوتات العفة الذي لم يرعوها حق رعايتها لأن قلوبهم لم تلن لذكر الله، إنه وجه آخر لمعركة الوعد الحق الغائبة عن وعي الأمة والمغيبة عن دروس الأئمة.

سأقدم شذرات عن لصقاء بعض رجالات قريش، وبغايا مكة اللائي كن مجاهرات ومشهورات بالعهر، يضاجعن في مخادع أزواجهن من ذوي القربى متخذات أخدانٍ ممن أوتوا بسطة مال اوجاه، أومن رأين أيره فأكبرنه، وأخريات رافعات رايات حمر.

سردي لهذه لأخبار الصادمة للصادقين، والمغضبة لعبدة رموز التراث تأتي في إطار ذبي عن عرض رسول الله فاضحا بها ما أعتقد أنه الدافع للقول إن أباه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله "ذهب نور كان في وجهه" بعد أن راود بغيا.

لن يكون حديثي عن رافعات رايات حمر في أزقة مكة مضاجعات فئامها الطوافين عليهن بليل أو وقت الهاجرة واللائي ولدن رجالا سودهم التبني فحسب، بل عن الذين تقول الأخبار المخفية و"المشكك" في صدقها من طرف علماء البلاط ومقلديهم من مغفلي الوعاظ والقصاصين، ورميهم ذاكرها بالتهم الأكثر تنفيرا "زنديق ضعيف الرواية رافضي خبث!"، التي رسختها السلطة المُتبنى أو المولود من البغاء بعض آبائها أو أجدادها؟.

قل أن تجد سردية يشيطن راويها إلا ووجدت لها حاضنة من جهة موثوقة مُخرجة من سياقها الواضح، إحداها حبرها ابو القاسم علي بن احمد بن موسى الكوفي في كتابه الاستغاثة من البدع الثلاثة، هو عند جمهور السنة المتمكنين "شيعي خبيث لا يروى عنه" وكالعادة يوجد بين كبار محدثي السنة من وثقه وروى عنه قال عنه الذهبي في سير اعلام النبلاء "الامام الصدوق المحدث [8]" لذلك أقول انتبهوا فإن ما يسمى "الجرح والتعديل" هو في أكثر الحالات مزاجي مذهبي وليس علمي، ولا اتفاق على الثقات ولا الضعاف، ومن المثير للغرابة فيه أن جرح السابقين الأولين

[8] الذهبي سير اعلام النبلاء ج13 ص377

مثل علي وعمر وعثمان وعائشة لا اعتبار له إن هم اتهموا شخصا بالكذب (اباهريرة مثلا)، لكن إن اتهم أحد الشيوخ الرموز متمكنا كان بينهما خصومات يصبح كل ما يقول ذلك الشخص كذب، فقد نقل بن حجر في تهذيب التهذيب أن الذهلي شيخ البخاري كان يضعف أبا قدامة السرخسي لأنه قدم عليه في مجلس فلم يقم له، وأن مالك بن أنس صاحب المذهب ترك الرواية عن سعد بن إبراهيم لأنه وعظه فوجد عليه، وأحمد بن حنبل نهى عن الرواية عن يحيى بن معين وابن المديني وعلي بن الجعد وأمثالهم لأنهم أجابوا في امتحان خلق القرآن؛ وهذ ما سماه المقبلي (خيانة السند) وقبل تفصيل هذا الموضوع سأمهد له بوصف مقتضب عن ظاهرة التبني التي رفعت أقواما.

ظاهرة التبني.

لا تفهم ما ترمز له الجملة لأكثر ترديدا، والتي تفيد بأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ولد الأرحام طُهر وأصلاب عفة، الا بالرجوع الى عديد المدونات غير المتداولة والمتحدثة عن المثالب، فقد رسخ في الأذهان أن مجتمع عرب ما قبل الإسلام كان مجتمعا على قدر من النبل والعفة والأخلاق، ما جاء الإسلام الا ليكرسها وليتمم نواقصها.

في تلك المدونات الوجه الآخر المغيب لمجتمع ماجن عاهر، ولأخبار تلك المدونات حواضن من الوحي وترميز بعض السرديات التاريخية، إن العهر كان سمة بارزة مرضي عنها وليست قادحة ولا مخلة بالمروءة، بل وصلت حدا مورست داخل الأماكن المقدسة على يد اساف ونائلة اللذين تقول الاخبار انهما فجرا داخل الكعبة فمسخا حجرين ثم عُبدا بعد ذلك[9]. بل نجد في العهد المدني فَسقة يتربصون بالنساء ليلا في أزقة المدينة المنورة قال الطبري في تفسير الآية الكريمة [يأيها النبي قل أزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن] " كان نساء النبي (صلعم) وغيرهن إذا كان الليل خرجن يقضين حوائجهن وكان رجال يجلسون على الطرق للغزل " [10] ونجد نفس المعلومة عند السيوطي " كان ناس من

---

[9] انظر سيرة بن هشام ج1 ص 54

[10] الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج2 ص 326

فساق اهل المدينة حين يختلط الظلام يأتون الى طرق المدينة فيعرضون للنساء[11] " وقال الثعلبي " أن الآية " نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ،فيرون المرأة فيغمزونها ، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها [12]" " كل الذين كانوا يقومون بهذه الأفعال حسب التعريف الفضفاض صحابة وعدول ويأخذ منهم الدين!.

كانت مكة مدينة استقطاب رغم ان ظروفها الاقتصادية غير جاذبة، ربما بسبب الأمن المصاحب لمكانتها في المعتقدات الوثنية الموروثة عن لحظات التوحيد الفارغة منذ العهد الابراهيمي ، كما كانت المواسم الدينية والثقافية (عكاظ) السنوية عناصر جذب للمتبضعين، فتراكمت فيها الثروة، وظهر فيها طبقة أثرياء كبيرة، وانتشر فيها الفحش المرافق للطفرات المالية ، مثل بيوتات الدعارة وتجارة الجنس، التي كان من أباطرتها المشهورين عبد الله بن جُدعان التيمي الذي وصفوه بأنه "كان في بدء امره فقيرا مملقا، وكان شريرا يكثر من الجنايات حتى ابغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته حتى ابوه ابغضه" ثم جاءت سردية الثعبان الذهبي التي حولته من كل هذه الاوصاف لتجعله رجل قريش الأبرز عند بن هشام في كتاب التيجان، وصاحب الجفنة التي يستظل رسول الله بها عند بن قتيبة[13]".

كان سادت مكة منغمسين في الشهوات الجنس وشرب الخمر والغمار، متظاهرين بارتياد بائعات اللذة، استحضروا فقط ما دُّون عن ابي سفيان في موضوع سمية ووصفه لها بالقذارة والنتانة واعترافه بأنه من وضع زيادا في رحمها ليستخلقه ابنه معاوية بعد أن اصبح حاكما للمسلمين" وصحابيا جليلا وخالا للمؤمنين"!! فلو كان تبناه قبل الإسلام لصار أمويا بامتياز، "و خالا للمؤمنين!!" لأن التبني يثبت النسب في العرف الجاهلي، حيث يمحو الاسترقاق ويورث المال والجاه، وينقل من وضع الدونية إلى

---

[11] السيوطي الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج6 ص 661

[12] الدمشقي الكشف والبيان في تفسير القرآن ج8ص64

[13] للمزيد من المعلومات يمكن مراجعة نسب قريش للزبيري دار المعارف القاهرة ص 291 والبداية والنهاية لابن كثير.

الرفعة والتمكين، "إنه يجب ما قبله وينسيه" حيث يصبح ذاكره حسودا حقودا لبني فلان.

تذكر مدونات التاريخ شخصيات مرموقة من علية القوم كانت عبيدا تبناهم اسياد معجبون بخصال فيهم يحتاجونها، استقواء بهم على عدو أو دفعا لمخاطر عاديات الأيام، او منعة يرجونها بأسيافهم ذوداً عن حمى العشيرة والفصيل لشدة بأسهم فألبسوهم الحرير وبطونهم الحرائر.

ظل التبني عرفا مكينا لا فرق بينه وبين ولد الصلب حتى منعه الإسلام في حادثة زيد بن حارثة رضوان الله عليه، فنسب المُتبنى إلى والد الصلب، وبقي الملحقون للأموات ينسبون وأولادهم وأحفادهم إلى متبنيهم فنسيت اصولهم السلالية.

من المُتبنين أجداد الأسرة التي حكمت بعد العهد النبوي مباشرة، حيث جدهم الأعلى عبد شمس متبنىً لعبد مناف، وهو بدوره متبنٍ لأمية، وأخرون منهم أبناء بغايا كما دون في صفحات الكتب المغيبة والمهجورة والمنفر من اصاحبها، والتي نجت من المحارق ، وإن ظل مؤلفوها عرضة للتكذيب والتصنيف في الفرق الضالة، رغم أن لجل اخبارهم في هذه الموضوعات حواضن في كتب خصومهم المدافعين في الاغلب عن الادعياء، وهو ما سأتناول النزر منه دفاعا عن عرض سيدنا رسول الله صل الله عليه وآله وسلم الذي طعنوا في عفة والده وآذوه حيا ونكلوا بعترته ميتا تسترا على أرحام ملوثة حملتهم من مياه آسنة.

لنأخذ ملخصا عن الأسرتين الأكثر التصاقا بالنبي "رحماً"، والأكثر عنادا وعداء لحامل دين الحق وقتلا وتنكيل بأهل بيته، والأكثر زخما وذكرا في كتب التراث، أبناء عبد شمس ونوفل، والمخفية أنسابهم وتاريخهم ما قبل "الإسلام والملك"، ولا شك أن المؤمن المخلص غير المطلع على خفايا تاريخ العرب لا يمكنه فهم عداء ذانك البطنيين لرسول الله المفروض أن يؤازروه ويوقروه ويفتخروا به، وله أن يتساءل في لحظة صحوة ضمير لم كل ذلك العداء للنبي وعترته وكيف نشأ وما هي دوافعه؟ ليسمع ذلك المؤمن ما قال أبو البركات " وأما عبد شمس ونوفل، فالصحيح أنهما ليسا

ولدي عبد مناف وانما هما أبناء زوجته وأمهما من بني عدي وكانا في كفالته فتبناهما[14] ".

ولا نعدم سندا لهذا الخبر من اقوال النبي صل الله عليه وآله وسلم، عند بن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري(حديث رقم 2971) قال حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم فقلنا يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد، قال الليث حدثني يونس وزاد قال جبير ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل).

فما كان المبعوث بالعدل ليحرم صاحب حق شرعي أمر الله أن يعطى له بصريح قوله تعالى: (وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِين وَٱبْن ٱلسَّبيل[15]) فلو كانا ابني عبد مناف لصلبه لأعطاهما حقهما.

حاضنة ثانية يمثلها دخول بني هاشم وبني المطلب شعب أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه واله وسلم محاصرين اقتصاديا لا يباعون ولا يبتاعون، ومقاطعين اجتماعيا لا يزوجون ولا يتزوجون، مؤمنهم دخل الشعب تدينا وكافرهم دخله حمية، فبان أن الذين حوصروا هم من تربطهم بالمصطفى صلة دم لا صلة تبني، حاضنة ثالثة وردت في أشعار سيدنا أبي طالب رضوان الله وسلامه عليه أيام الحصار تمثل أدلة تاريخية على أن البيتين ليسا من صلب عبد مناف حيث يقول:

والى علينا مُوليانا كلاهما	إذا سئلا قالا الى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر ولكن تراجماً كما	تراجمت من راس ذي القلع الصخر

[14] أبو البركات شرح الحاوي الكبير ج1 ص493

[15] سورة الانفال الآية41

اخص خصوصا عبد شمس ونوفلا	هما نبذانا كما نبذ الخمر
قديما ابوهم كان عبدا لجدنا	ابني امة شهلاء جاش بها البحر

حاضنة رابعة جاءت في رد سيدنا علي عليه السلام على رسالة لمعاوية قال فيها "نحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ولا يسترق به حر" يقصد النبوة فرد عليه علي عليه السلام " وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَ لَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّة كَهَاشِمٍ وَلاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ وَ لاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ وَلاَ اَلْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ وَلاَ اَلصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ [16]".

ثم يأتي التشكيك في نسب أمية لعبد شمس عند بن أبي الحديد فيقول "إن معاوية قال لدغفل النسابة: أريت عبد المطلب؟ قال: نعم، قال: كيف رأيته ؟قال: رأيته رجلاً نبيلا وضيئ كأن على وجهه نور النبوة.. قال معاوية: أريت أمية؟ قال نعم قال كيف رايته قال: رأيته رجلاً ضئيلا منحنيا أعمى يقوده عبده ذكوان فقال معاوية: ذلك ابنه أبو عمرو(ذكوان) قال دغفل: أنتم تقولون ذلك أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده، وأن أمية كان عقيماً وإن اولاده من عبده الرومي ذكوان [17]".

وذكر المرزباني في معجم الشعراء،[18] أن القلاخ العنبري الشاعر المعمر، التقى معاوية بن أبي سفيان وكان له معه خبر ذكر فيه أنه رأى أمية بن عبد شمس بعدما ذهب بصره، يقوده عبد أفيحج من أهل صفورية، يقال له ذكوان، فقال له معاوية: مه، ذاك ابنه ذكوان، فتراجعا في ذلك، فقال القلاخ:

يُسائلني معاويةُ بن هند	لقيت أبا شلالة عبد شمس؟
فقلت له: رأيت أباك شيخاً	كبيراً لسن مضروباً بطمس
يقود به أفيحج عبدُ سوء	فقال بل ابنه ليزيل لبسي؟

[16] شرح نهج البلاغة الرسالة 17 وورد نفس الخبر عند المسعودي في مروج الذهب وعند المقريزي في النزاع والتخاصم

[17] شرح نهج البلاغة ج3 ص 466

[18] معجم الشعراء، 272؛ ينظر، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 398/5.

ونستدل مما تقدم أن نسب بني أمية هو ليس من نسب قريش، ولا يمت بأي صلة لهم، وأنهم ألصقوا بهم وهذا ما ورد في تلك الروايات.

ونجد رواية مماثلة نقلها صاحب الأغاني عن الوليد بن هشام بن قحدم قال: " قال عثمان يوما وددت أني رأيت رجلا قد أدرك الملوك يحدثني عما مضى؟ فذكر له رجل بحضرموت فبعث إليه فحدثه حديثا طويلا، الى ان قال له عثمان: أريت عبد المطلب بن هاشم؟ قال نعم رأيت رجلا قعد- بكسر فسكون بمعنى حسن الهيئة- ، ابيض طويلا مقرن الحاجبين بين عينيه غرة يقال إن فيها بركة وان فيه بركة، قال أفرأيت أمية بن عبد شمس قال نعم رأيت رجلا آدم دميما قصيرا أعمى يقال إنه نكد وإن فيه نكد، فقال عثمان يكفيك من شر سماعه وامر بإخراج الرجل من مجلسه [19]".

وظل حقد هذا الحي على الهاشمين مستمرا فنجد أبا سفيان بن حرب حاضرا في الفعلة الشنيعة ضد زينب بنت رسول الله، خلال هجرتها، يقول البلاذري في أنساب الأشراف في حديث طويل أن أبا العاصي زوج زينب عليها السلام أمرها بالتهيؤ للحاق بأبيها "فلما تجهزت بعث بها مع كنانة بن عدي، .. وهو بن عمه، ويقال بعث بها مع عدي بن ربيعة فاعترضها رجال من قريش بذي طوىً فبدر اليها هبار بن الأسود ... وهو أبو عقبة بن نافع صاحب المغرب فأهوى اليها هبار بالرمح فأفزعها، وكانت حاملا فألقت ما في بطنها بعد أيام، وفوق كناتة أو عدي سهماً وكان راميا فقال أبو سفيان بن حرب وكان في القوم أكفف بذلك عنا فإنا والله ما نمنعها من المسير[20]"حتى هذه الفعلة الدنية ضد مرأة حامل يأبي أبو سفيان إلا حضورها.

عاهرات ولدن حكاما.

ومن بين العاهرات اللائي ولدن حكاما يرد ذكر هند بنت عتبة أم معاوية بن حرب حيث ينقل اختلاف المؤرخين في والده الحقيقي فينسب الى اربعة رجال من قريش.. "تزوجت امه هند من الفاكهة بن المغيرة وطلقها بعد ان اتهمها بالزنى، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب، وذكر ابن ابي الحديد المعتزلي أن هند اشتهرت بالفجور والعهر، وذكر "سبط ابن

---

[19] شرح نهج البلاغة ج15 ص 233

[20] البلاذري انساب الأشراف المجلد 13 ص 397

الجوزي [21] " في كتابه تذكرة الخواص من الأمة في ذكر خصائص الائمة " أن هند كانت تميل الى العبيد حتى اذا ولدت عبدا اسود قتلته.. ويوم فتح مكة جاءت هند بنت عتبة لتبايع النبي، فقالت على ما ابايع ؟ فقال النبي: على ان لا تزنين فقالت: وهل تزني الحُرة؟ فضحك عمر بن الخطاب !!" وذكر ابو الفرج الاصفهاني في كتابه الاغاني، ان معاوية يُنسب الى مُسافر بن عمرو وكان عشيقاً لهند، وفارقها حين تزوجت من ابي سفيان، وكانت حبلى منه، فرحل الى النعمان بن المنذر، وجاء في كتاب المناقب والمثالب للقاضي النعمان بن محمد بن منصور " كان معاوية يعزى (ينسب) إلى ثلاثة: إلى المسافر بن أبي عمرو, وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة, وإلى العباس بن عبد المطلب, وكان أبو سفيان يصحبهم وينادمهم, ولم يكن أحد يصحبه إلاّ رمي بهند, لما كان يعلم من عهرها... وكان مسافر جميلاً, وكانت هند تختار على أعينها، فأعجبها، فأرسلت إليه، فوقع بها، فحملت منه بمعاوية, فجاء أشبه الناس به جمالاً وتماماً وحسناً, وكان أبو سفيان دميماً قصيراً أخفش العينين, فكلّ من رأى معاوية ممّن رأى مسافراً ذكره به![22]".

وأضاف أن أبا سفيان أمر هند أن تلد معاوية في حظيرة الخيل، وقال الزمخشري الحنفي "كان معاوية يعزى الى أربعة، الى مسافر بن ابي عمرو، والى عمارة بن الوليد بن المغيرة، والى العباس بن عبد المطلب، والى الصباح مغن كان لعمارة بن الوليد[23]".

وجاء في كتاب الأغاني" وكانت هند من المغتلمات، وكان أحب الرجال إليها السود، فكانت اذا ولدت اسود قتلته، وكان الصباح مغن لعمارة بن الوليد وكان أبو سفيان دميما قصيرا ، وكان الصباح اجيرا لابي سفيان شاب وسيم، فدعته هند الى نفسها فغشيها، وقالوا إن عتبة بن ابي سفيان من الصباح أيضا، وقالوا انها كرهت ان تلده في منزلها، فخرجت الى اجياد فوضعته هناك، فقال حسان بن ثابت رضي الله عنه في هجائها:

---

[21] هو يوسف بن قزعلي البغدادي الحنفي توفى 654

[22] القاضي النعمان بن محمد بن منصور المناقب والمثالب ص 243 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت

[23] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ربيع الابرار وفصوص الأخبار ص752 ط مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت

لمن سواقط سودان منبذة	باتت تفحص في بطحاء اجياد
تقول هنا وقد جد المخاض لها	ياليتني كنت ارعى لشول غاد

"[24]

ومن علية القوم الوافدين من مستنقع اجتماعي ملوث ولعبوا اللعبة الكبرى في عداوة النبي وقتاله والتحريض عليه وقيادة دبلوماسية أسر الحقد والحسد والعناد عند الملوك، يرد ذكر عمرو بن العاص، فنجد في التاريخ المغيب قصصا من مصادر مختلفة منسوبة لشخصيات عدة متفقة على أنه من رحم ملوث بنطف عدة.

فعند أبي المنذر هشام الكلبي شيخ المؤرخين والنسابة الذي أخذ عنه كبار أهل هذين الفنين، في كتابه مثالب العرب في باب تسمية ذوات الرايات "وأمّا النابغة أُمّ عمرو بن العاص: فإنّها كانت بغيا قدمت مكّة ومعها بنات لها, فوقع عليها العاص بن وائل في عدّة من قريش، منهم: أبو لهب, وأُميّة بن خلف, وهشام بن المغيرة, وأبو سفيان بن حرب, في طهر واحد، فولدت عمراً، فاختصم القوم جميعاً فيه، كلٌ يزعم أنّه ابنه, ثمّ إنّه أضرب عنه ثلاثة، وأكبّ عليه اثنان: العاص بن وائل, وأبو سفيان بن حرب، فقال أبو سفيان: أنا واللّه وضعته في حر أُمّه. فقال العاص: ليس هو كما تقول، هو ابني، فحكّما أُمّه فيه، فقالت: للعاص. فقيل لها بعد ذلك: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: إنّ العاص كان ينفق على بناتي, ولو ألحقته بأبي سفيان لم ينفق علي العاص شيئا، وخفت الضيعة, وزعم ابنها عمرو بن العاص: إنّ أُمّه امرأة من عنزة بن أسد بن ربيعة. وعدّه الكلبي من الأدعياء في باب أدعياء الجاهلية، وقال: قال الهيثم: ومن الأدعياء عمرو بن العاص, وأُمّه النابغة حبشية, وأخته لأُمّه أرينب (بضم الألف)، وكانت تدعى لعفيف بن أبي العاص, وفيها قال عثمان لعمرو بن العاص: لمن كانت تدعى أختك أُرينب يا عمرو؟ فقال: لعفيف بن أبي العاص. قال عثمان: صدقت.

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى " أنّ عمراً اختصم فيه يوم ولادته رجلان: أبو سفيان, والعاص, فقيل: لتحكم أُمّه، فقالت: إنّه من العاص بن وائل فقال أبو سفيان أما إنّي لا أشكّ إنّني وضعته في رحم أُمّه، فأبت إلاّ

---

[24] أبو الفرج الاصفهاني كتاب الأغاني ص1999 ط دار الهلال بيروت 2000

العاص، فقيل لها: فقالت: إنّ العاص بن وائل كثير النفقة علَيَّ، وأبو سفيان شحيح.وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت رضي الله عنه لعمرو بن العاص حين هجاه دفاعا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

ابوك أبو سفيان لا شك قد بدت	لنا فيك منه بينات الدلائل
ففاخر به اما فاخرت ولا تكن	تفاخر بالعاص الهجين بن وائل
وإن التي في ذاك يا عمرو حكمت	فقالت رجاء عند ذاك لنائل
من العاص عمرو تخبر الناس كلما	تجمعت الاقوام عند المحامل

وقال الزمخشري في ربيع الأبرار" كانت النابغة أُمّ عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة (بالتحريك)، فسبيت، فاشتراها عبد الله بن جُدعان التيمي بمكّة، فكانت بغيّا. ثمّ ذكر قصة الكلبي، ونسب الأبيات إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأضاف أن ناسا أعطوا ألف درهم لرجل على أن يسأل عمرو بن العاص عن أُمّه ولم تكن بمنصب مرضي، فأتاه بمصر أميراً عليها، فقال: أردت أن أعرف أُمّ الأمير. فقال: نعم, كانت امرأة من عنزة, ثم من بني جلان تسمّى ليلى، وتلقّب النابغة, اذهب وخذ ما جعل لك.

وقال الحلبي صاحب السيرة المشهورة في نكاح البغايا: "ونكاح الجمع. من أقسام نكاح الجاهلية: الأوّل: أن يطأ البغي جماعة متفرّقين، واحداً بعد واحد، فإذا حملت وولدت ألحق الولد بمن غلب عليه شبهه منهم. الثاني: أن تجتمع جماعة دون العشرة، ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات، كلّهم يطأها، فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، وهو ابنك يا فلان. تسمّي من أحبّت منهم، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منهم الرجل, وكانت أُمّ عمرو بن العاص من القسم الثاني، فإنّه وطئها أربعة، هم: العاص, وأبو لهب, وأميّة, وأبو سفيان, وادّعى كلّهم عمراً، فألحقته بالعاص لإنفاقه على بناتها[25]"

---

[25] السيرة الحلبية ج1 ص 46

وفي أنساب الأشراف للبلاذري "وحدّثني عباس بن هشام الكلبي, عن أبيه، قال: دخل عقيل على معاوية، فقال له: يا أبا يزيد أيّ جدّاتكم في الجاهلية شرّ؟ قال: حمامة والدة أبي سفيان فوجم معاوية، فأرسل إلى دغفل النسّابة فقال: أخبرني من حمامة؟ قال: أعطني الأمان على نفسي وأهلي, فأعطاه, قال: حمامة جدّتك، وكانت بغيّة في الجاهلية, لها راية تؤتى[26]."

وذكر بن ابي الحديد "أن دغفل بن حنظلة الذهلي النسابة دخل على معاوية في مجلس فقال: من هذا عن يمينك يا معاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص. قال: هذا الذي اختصم فيه ستّة نفر, فغلب عليه جزار قريش: فمن الآخر؟ قال: الضحّاك بن قيس الفهري، قال: أمّا والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس, فمن هذا الآخر؟ قال أبو موسى الأشعري, قال: هذا ابن السراقة.فلمّا رأى معاوية أنّه قد أغضب جلساءه, علم أنّه إنّ استخبره عن نفسه, قال فيه سوءاً, فأحبّ أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء, فيذهب بذلك غضب جلسائه, قال فما تقول فيَّ؟ قال: دعني من هذا!قال: لتقولنّ.قال: أتعرف حمامة؟ قال: ومن حمامة ؟ قال: قد أخبرتك, ثم قام فمضى فدعاه, فقال: من حمامة؟ قال: ولي الأمان! قال: نعم, قال: حمامة جدّتك أُمّ أبي سفيان, كانت بغيّاً في الجاهلية صاحبة راية, فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تغضبوا[27]" وفي كتاب الغارات "قال الشيخ: قال أبو بكر بن زبين عن حمامة: هي أُمّ أبي سفيان [28]"

شكلت هذه الجبهة عقبة كأدي في وجه الوعد الحق وإن لم تحظ بمعالجات تفصح عن الوجه الآخر من صراع الحق والباطل، وانتصار الباطل في الدور الثاني وتحول الباطل حقا والحق باطلا.

الفصل الثاني.

نحو تأمل اللحظة المفصلية

في ليلة شديدة البرد - على ما يبدو- كان محمد بن عبدالله مغطىً في فراشه، جاءه أمر غير عادي ولا معهود، شكل لحظة مفصلية في حياته، فانتقل من كونه محمد بن عبد الله، إلى محمد رسول الله إلى [الناس

---

[26] احمد بن يحيى البلاذري انساب الاشراف ص 72 ط دار الفكر بيروت 1996

[27] ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج2 ص225

[28] إبراهيم بن محمد الثقفي كتاب الاستنفار والغارات ج1ص 65

كافة]، جاءه الوعد الحق أَن قد حان وقت تغيير مسيرة البشرية، في تلك الليلة نُودي في فراش نومه أن "قم فأنذر".

ولعلي هنا أكون قد خرقت الصورة التراثية المرسخة عن تلك اللحظة في القصتين اللتين تحدثتا عنها، عند الكاتب الأبرز في الفكر السني بردزبه البخاري صاحب الكتاب المشهور بـ"الصحيح" وغيره، إحداهما عن السيدة عائشة رضوان الله عليها، ملخصها أن مخلوقا من خارج المجال البشري "الملك" ظهر لمحمد بن عبد الله القادم من غار حراء مقر تأمله - الذي لم يرد له ذكر في الوحي - حاملا بشائر الوعد الحق، فضمه بعنف حتى "بلغ منه الجهد" وأمره أن أقرأ، فتمنع مرتين بصيغة "ما أنا بقارئٍ"، وفي الضمة الثالثة ركن إلى الوداعة، فأمره "الملك أن أقرأ "باسم ربك" هذه الرواية هي المعتمدة في الثقافة الشعبية وهي الأكثر تداولا.

قصة ثانية رواها نفس الكاتب (البخاري) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، ملخصها أن مخلوقا "ملك" على بساط معلق في الفضاء تجلى لمحمد العائد من مكان لم يحدده، فأخافه أيضاً فعاد إلى أهله مسرعاً ترتعد فرائصه قائلا دثروني دثروني- أي طالبا التدفئة - لكنه انتبه على ما يبدو إلى تناقضها مع قصة السيدة عائشة فذكر أن السائل قال لجابر يقولون إن سورة العلق هي اول ما نزل؟ فرد عليه اخبرك ما اخبرني به رسول الله، فتولى شراحه الكثر إضافات وتفسيرات غاية في الغرابة منها ما اسموه "فترة الوحي!!"

الغريب في القصتين أن الأولى تحدثت عن عنف جسدي مارسه "الملك" المرسل من الله إلى محمد المبعوث رحمة للعالمين؟ وفي الثانية عنف نفسي حيث أرعبه منظر ذلك الكائن(الملك) المعلق في الفضاء، والأغرب أنه طلب غطاء ما يعني أنه يعاني من البرد ومع ذلك و في نفس القصة طلب أن يصب ماء بارد على رأسه؟.

استشكالي هو: لماذا يُخوف الملك من اختاره الله رحمة للعالمين؟ وهل المقام مقام تخويف لمن أختاره الرحيم رسولا منقذا لعباده من عقاب يوم شره مستطيرا؟ لا شيء يمكن الركون إليه في التعليلات التراثية لهذين

الحدثين المروعين - إن صحا أصلا -، خاصة أن الوحي الذي تحدث بالتفصيل عن لحظة البداية لم يرد فيه ولو تلميحاً ما يفهم منه أن أمراً كهذا قد حدث، سأستمد من القصة الثانية أن سورة المدثر هي أول ما خُوطب به الرسول لكن وفق منظوري لبنية خطابها المنسجم مع محددات الرسالة.

لماذا سورة المدثر؟

}يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر[29]{ مقاطع البداية هذه غاية في تحديد اهادف الرسالة على كل المستويات، فقد حددت المهمة التي هي انذار قومه من خطورة ما هم عليه من الشرك، وما ينبغي أن يكون عليه حامل هذه الرسالة من تمجيد وتكبير للرب، ونظافة ملبس من قاذورات مألوفة في بيئته الاجتماعية الوثنية البدائية، وهجر معبودات قومه من منحوتات، جوهر المهمة المكلف بها هي القضاء عليها، وعليه التخلق بما لم يعهد الناس، فلا مَنَّ على يدٍ مُدّت إلى محتاج ولا استكثار لما أعطي له، وأن عليه الاستعداد النفسي لصبر نادر على القادم من أذى المعاندين في قادم أيامه لأن المهمة شاقة جداً.

بعد هذا التمهيد التوحيدي والأخلاقي والنفسي، يأتي المقطع الأكثر تأثيرا والمتعلق بممهدات يوم البعث واهواله } فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{ وهو يوم يبدو ان مشركي العرب لم يكونوا يصدقون به مطلقا، كما يفهم من خلال تركيز القرآن عليه في الكثير من الموضوعات، ووصفٍ لنفسيات المتلقين خاصة منهم المعاندين من علية المجتمع، حيث تظهر شخصية عنيفة متحدية لكل وعيد خَوفت منه الآية.

عند الروائيين هذه الشخصية هي الوليد بن المغيرة المخزومي، ولا نستبعد أن يكون غيره ، فالثقافة الأموية أبعدت كل رموزها المعروفين بالعناد والتكذيب من الصورة، فحولت اثرا روي عن النبي (صلعم) حول

---

[29] سورة المدثر من الآية 1-7

فرعون الأمة الوارد في زعيم هذه الجماعة (معاوية بن ابي سفيان) الى كبش فداء من نفس جماعة الوليد بن المغيرة، هو عمرو بن هشام المعروف في التراث الاسلامي بأبي جهل، وتقديم قبيلته على أن حسدها لبني عبد منافٍ هو سبب رفضها للرسالة، علما بأن رموزا من بني "عبد منافٍ" كانوا حملة الصد عن الإسلام وعداوة الرسول.

ليس من أولويتنا ناقش من هي هذه الشخصية ، وإن كان مستساغا عندنا أن يكون عتبة بن الوليد، أو أبو سفيان صخر بن حرب، فهما "من بني عبد مناف؟" الأقرب رحما للرسول والأشد عداوة وتنفيرا وصدا عن دعوته، والبداية كانت بإنذار عشيرته الأقربين خاصة الهاشمين والمطلبين دون العبشمين والنوفلين ولعل سبب ذلك ما سبق واشرنا اليه من أنهم أبناء عبد مناف بالتبني.

توعد الوحي هذا الشخص، وذكره بما هو فيه من رغد عيش وتمكين وجاه مذكرا إياه بأن كل ذلك ليس بقدرته ولا تميزه ولا مكانته، وانما الرب هو صاحب ذلك الأفضال عليه } ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا[30] { ثم يتواصل وصف نفسية هذا المعاند المتحدي، ورأيه الفيصل في كل ما أخبر به محمد الرسول، في مشهد مروع حقا ووصف بديع للأهوال التي تنتظره، يخاطب الوحي الرسول بالقول } إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا {.

في قمة التهويل يأتي المقطع المخبر للملء الأعلى بأن حفظة جهنم تسعة عشر ملكا، فيأتي الرد من شخص ساخر يقول بأنه كفيل بتسعة أو عشرة منهم وأن الملء الأعلى من قومه لن يعجزهم الباقون، ورد اسم هذا المُتحدي في كتب التراث على أنه أبو الأسود الحرث بن كلدة

---

[30] سورة المدثر من الآية 11-15

الجُمحي وهو مثل سابقه لا يعني لنا اسمه الكثير وقد يكون غيره.

في مقاطع لاحقة من سورة المدثر يأتي الحديث عن جماعات ظلت تحارب الدعوة طيلة أيام الرسول، وهي جزء من حلف تشكل في الأيام الأولى لنزول الوحي يندر الحديث عنه بالتفصيل مكون من جماعة من أهل الكتاب" اليهود" ، وقرشيون تظاهروا باعتناق الدين، قد يكونون مدسوسين من طرف الملء الأعلى عيونا على جماعة الإيمان المراقبة جيداً، وسيتطور هذا التجمع ويكبر ويأخذ أشكالا مختلفة طيلة العهد النبوي، مشكلا خطرا داخليا على الرسالة ، وظل مصدر ازعاج حتى تمكن من السيطرة والغلبة بعد وفاة الرسول وأسس دولة الطلقاء.

وصفتهم السورة بالذين في قلوبهم مرض،} وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً[31] { وهو اسم أطلقه الوحي على ناس تظاهروا باتباع الدعوة وتستروا على كفرهم، أو كان اتباعهم متأرجحا بين الشك واليقين، وستكون لنا وقفة معهم لنرى هل ما رسخ في الأذهان من أن العهد المكي لم يعرف نفاقا صحيح، رغم حديث قرآن الأيام الأولى للدعوة عن المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض وفي هذه السورة بالتحديد؟، وقد أسهبت سورة البقرة بالذات والعديد من القرآن المدني في الحديث عنهم وعن مؤامراتهم، لكن قريشا لما ملكت نفت عن نفسها تهمة النفاق، وهو الاسم الثاني لهذه الجماعة، وتولى الأثريون والمفسرون مهمة ترسيخ تلك الفكرة بالقول إن هذه الآية تأخر نزولها!! علما بأن هذه الآية إن كان نزولها تأخر إلى العهد المدني - أي ثلاثة عشر عاما - فهذا يعني أن السورة ظلت ناقصة المعنى وحتى غير مفهومة للسامع وهذا عبث لا يليق نسبته لله.

ونجد في سورة (العلق) التي هي أول ما نزل من الوحي في قصة السيدة عائشة، ملكاً يأمر الرسول بأن اقرأ "باسم ربك" ، وهنا ينفجر الجدل التراثي، هل كان الرسول يعرف القراءة مثل النزر من رجال قومه؟ ام كان أميا كما ورد في سورة الأعراف المكية؟ وهل تلك الأمية تعني

---

[31] المدثر لآية 31

عدم القراءة ام وصف كان يطلقه اليهود على غيرهم ؟ كما في سورة آل عمران [ليس علينا في الأميين سبيل[32]] وهي أمور تحتاج نقاشا.

في السورتين نجد الحض على كلمة " ربك" وهو اسم لم يكن متداولا عند العرب، ثم حديث عن كيفية خلق الانسان من علق، وذكر لموقف شخص ماردٍ معادٍ متوعد لكل من يتبع الدعوة الجديدة وهو شخص -أبو جهل- عمرو بن هشام المخزومي أو أبو الحكم كما يكنيه قومه وهو كذلك مثل سابقيه في كتب التراث، ورغم أننا لا ننكر عناد هؤلاء الأشخاص وغيرهم، لكن ألقاء كل وعيد على شخصية من هذا الحي من قريش يجعلنا نشك في صحته، فلم يكن بنو مخزوم وحدهم من عاند وصد عن الإسلام، بل إن رموز قريش جلهم عاندوا وقاوموا وسخروا واستهزئوا.

إن التركيز على قبيلة واحدة أو القبائل الأقرب لها في النسب من بطون قريش، لا يخلوا من ابعاد سياسية خاصة أيام التدوين حيث خصومهم ومنافسوهم في الجاهلية هم من ملكوا وصرفوا الأنظار عن عناد أسلافهم وعدائهم للرسول وقومه ودينه.

خلال تداعيات الصدمة الكبرى هذه ومخاض لحظة السمو المُخلِّص من أدران طور البشرية، والانتقال إلى التماهي مع العوالم العلوية الخارقة والخارجة عن حدود العقل، المشكلة لمرحلة التحول من محمد بن عبد الله البشري إلى محمد رسول الانسانية، نظل حيارى مما هو مسطور بأقلام متمكنين مهرة، وما هو محفور في الذاكرة التراثية مما لا يقبل عقل سليم أن يحدث لبشر سوي ذي خلق ومروءة، أحرى لرسول جاء متمما لمكارم الأخلاق، الذي خاطبه الملك وأخبره بأنه حامل الرسالة اليه من ربه، وأنه المكلف بالتبليغ والارشاد والهداية للناس جميعا.

من خلال ما سطروه يبدو الرسول الأكرم غير مقتنع بأنه رسول، ما على القارئ سوى استحضار قصة الفاضلة الطاهرة أمنا خديجة عليها السلام، في ذلك المشهد الخليع السافل الساقط وهي بزعمهم مُحصرة إزارها، ومتمم مكارم الأخلاق منساق لعواطفه وشهواته، والروح الأمين جاثٍ

32

ينتظر منهما لحظة تجلي الطباع الحيوانية ليزَّاور عن أهل البيت المصطفين، ولتقول الخالدة وهي حسب زعمهم في وضع غير محتشم، "هل اختفى صاحبك؟ [33]".

ترى من نقل هذه القصة الخليعة الغريبة؟ وهل نقلها من أحد أطرافها؟ بمعنى هل حدث بها الرسول أم خديجة أم هما معا ومن حدثا بها ؟ ومن يصدق أن هذا يمكن أن يحدث لمحمد رسول الله وبحضرة الروح الأمين، وتلك الطاهرة المجتبات ؟ ألا يحق لنا أن نسأل كيف عرفت سيدتنا خديجة أن الملك سيخرج إن هي أصبحت في وضع الزوجية؟ هل كانت تعرف الملائكة أو سمعت عنهم؟ يقولون إنها بدأت بكشف غضاء راسها وهل كان نساء تلك الفترة يغطين رؤوسهن أصلا؟

المشهد المقزز الفاضح هذا لم يشف صدور القُصاص والدساسين، بل اشفعوه بأن الرسول غير مقتنع بالرسالة، فاسندوا دور الاقناع لكاهن قريش "ورقة بن نوفل" فجاء ب"البلسم" "إنه الناموس الذي أتى موسى" هنا فقط هدأ روع المصطفى كما يزعمون، واطمأن لكلام الكاهن الذي أخبره بمستقبله "ليتني فيها جذع " .

هذه بعض المناكير التي لا نفكر فيما تحمل من سخرية وازدراء بالله وملكه ورسوله، رٌبينا عليها وسار عليها السلف "المقدس" وتعاطتها القرون الأولى المتأثرة برواسب الوثنية التي منها قيم خلاعة الفئام المنبهرين بأساطير الأمم قبلهم وما تحمل من ازدراء للنبيين والملائكة، وما يُزخرف لنا عبر قُصاصهم وتلامذتهم منا" تحت شعار هذا ما أخبر به قديسوهم واحبارهم عن صاحبنا.

رسولنا وأوائل تابعيه تهيئة نفسية وخلقية قرآنية.

[وأنذر عشيرتك الأقربين[34]] [فاصدع بما تؤمر[35]] هاتان الآيتان حددتا الخطوات الأولى فانطلقت دعوة محمد رسول الله الواثقة من النصر

---

[33] وردت هذه القصة الخليعة غير اللائق بالجناب النبوي في تاريخ الطبري ج2ص303 وعند بن إسحاق في السير والمغازي ص133 وفي سيرة ابن هشام ج1 ص 271

[34] سورة الشعراء الآية 214

[35] سورة الحجر الآية 94

والتمكين، الواضحة الخالية من أي تعقيد وبأسلوب سلسل يفهمه كل مستمع، ويأسر كل ذي لب سليم وذوق رفيع.

امر طبيعي أن تكون البداية بدعوة محيطه الضيق ، ثم الذين يلونهم في القرب السلالي وفق مساطر المجتمع القبلي، حيث هم الركن الشديد الذي يُؤوى اليه عند الخطوب، والأجدر بالنصح والتوجيه لأنهم مظنة النصرة والحماية، فالدعوة المحمدية متماهية مع طباع البشر وتفاعل المجتمعات ،فأمر بأن ينذر عشيرته الأقربين: الهاشمين والمطلبين خاصة قال الجلالان: "هم بنو هاشم وبنو المطلب وقد أنذرهم جهارا" كما رواه بردزبه المشهور بالأمام البخاري، وورد بن كوشاذ المشهور بالأمام مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما، فاستجاب نفر من هؤلاء وأولئك، وزَّاور جل الفئام ورأوا في الدعوة بدعة تسفه ما كان يعبد آبائهم من منحوتات، وتلكأ آخرون، وآخرون سخروا واستهزؤوا، سنة الله التي لا تبديل لها، فلم يكن محمد رسول الله بدعا عمن سبقوه من المرسلين، فقد كُذبوا وأُوذوا وقتل البعض منهم.

في العهد المكي كان القرآن يركز على الحجج الداحضة للثوابت الوثنية المترسخة في النفوس، خاصة مسألتي البعث ويوم الحساب اللتان أخذتا حيزا كبيرا، وكان نقاشهما الأكثر حضورا بشكل لافت فشعار "ارحام تدفع وأرض تبلع" كان هو الثابت والتخلص منه كان رديف التوحيد الخالص، جل أسئلة المشركين التي يعتبرون الإجابة عنها تمثل تحديا لمحمد كانت تدور حول سؤالهم المتكرر [أإ ذامتنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون [36]] [من يحي العظام وهي رميم [37]] [أإذا ضللنا في لأرض أإنا لفي خلق جديد [38]] [أإذا متنا وكنا ترابا وعظما إنا المبعوثون أو آبائنا الأولون[39]] وكانت الإجابات القرآنية على هذه الأسئلة ، ترد متزامنة مع الإنذار من ذلك اليوم الموصوف بالعظيم من شدة أهواله وهو يوم التقاضي الذي يجب الإيمان به [وأنذرهم يوم الحسرة اذا قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون[40]]

---

[36] سورة الصافات الآية 53
[37] سورة يس الآية 78
[38] سورة السجدة الآية 10
[39] سورة الواقعة الآية 47-48
[40] سورة مريم الآية 39

.. [وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين[41]] .. [وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا آخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل[42]،] فحتى القلة المؤمنة أنذرت من ذلك اليوم [وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع[43]]

كان الرد القرآني على اسئلتهم تلك يأتي مبسطا محملا برتوش خلقية باعتبارها الطريق السالك لنفس السائل ولتخفيض شحنة التحدي النفسي المشحون بها، في تحديد منهج سلوكي واضح على رسول الله التحلي به ومن اهمه الصبر والصفح عما يرافق تلك النقاشات من تكذيب وافراط في الإساءات، مثل وصفه بالمجنون والساحر والكاهن، وهي أمور لا يصبر عليها أصحاب النفوس العزيزة، لذلك نجد القرآن يدعوه باستمرار لمعاملتهم برفق وصفح عن هناتهم، وأن على الثلة المتبعة له ان تتحلى بتلك التوجيهات الخلقية في التعامل مع المحيط المعادي. وأن يبتعدوا عن نفسيات مجتمعاتهم القائمة على المغالبة والتفاخر بالقبيلة والتميز السلالي.

من سنن الله التي لا تبديل لها أن الضعفاء والمستضعفين والمهمشين والعبيد، هم أول المستجيبين والملبيين لنداء الحق مشكلين روافع الدين وتُرسِ حمايته والمنافحة عنه، لأنهم يرون فيه خلاصهم مما هم فيه من الذل والمهانة، بينما اهل التمكين ديدنهم السخرية والاستهزاء والتكذيب كما فعل أشياعهم من قبل منذ اتباع أول الرسول سيدنا نوح صلوات الله وسلامه عليه الذي قال له قومه [ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا [44]] وقال المستهزئون من قريش للذين ءامنوا بما نزل على محمد من الذين استضعفوا [لو كان خيرا ما سبقونا إليه [45]].

أسئلة كثيرة واجهتني ووجدت المصادر المهتمة خرساء، وبحثت في مظانها فوجدتها قُفراً، من تلك الأسئلة: كيف كان النبي يدعوا الناس؟ ومن

---

[41] سورة غافر الآية 18
[42] سورة ابراهيم الآية 44
[43] سورة الانعام الآية 51
[44] سورة هود الآية 27
[45] سورة الاحقاف الآية 11

هي الفئة التي كان يستهدف أكثر من غيرها ولماذا؟ ومن الأسئلة ما يتعلق بملابسات اسلام بلال وعمار وخباب وطبقتهم من المستضعفين، في المقابل وجدت سردا مملا بل ومثيرا للشك حول اسلام آخرين لا تخلوا الحكايات حولهم من بطولات لا يدعمها الواقع القبلي المدون في كتبهم حيث يصل بعض سرد تلك البطولات حداً يجعل الله ورسوله وكأنهما كانا محتاجين لتلك الشخصيات لحماية الدين والتمكين له!.

سأكتفي بهذه الشذرات الممهدة لبداية الوحي والصدمة التي أحدث في نفوس الوثنيين، والهزة الكبيرة التي رافقت هذه اللحظة في المجتمعات التي كانت غارقة في جهالة عميقة، وانزواءً في ركن قصي بعيد عن التأثر بما يدور من عقائد ومعتقدات في حضارات العالم القديم، الراسخ في أذهانهم مقولات عليتهم الخالدة عن المصير المرعب والمأزق الفردي "الموت" الذي يمثل مأساة لكل شخص والتي هي نهايته وفق مقولة "أرحام تدفع وأرض تبلع".

بعد هذا الانقلاب الكوني الهائل والتطور المتسارع الصادم للعقول والعواطف، تحولت المدينة المقدسة (مكة) من أحاديث الأجداد عن منحوتاتهم وقرابينهم الجالبة لأيام السُعد إلى تأملاتٍ أصحابها باحثين عن إجابات عن أسئلة من أين جئنا وإلى أين نسير؟ إنه فعلا تحول هائل اهتدى به نفر أكثرهم عاشوا وورثوا الذل والإهانة كابرا عن كابر، جلهم من أحزمة التهميش ومستنقعات الظلم فتداعوا إلى مهيع الحق ملبيين نداء التوحيد المبشر بالمساواة.

ثلاث قضايا طغت على جل العهد المكي.

1-قضية البعث التي يمهد الايمان بها للصدود عن متع الدنيا ونزوات النفوس من اتيان منكرات سفك الدماء وفواحش ظواهر وبواطن ، مبشرة بحياة أخرى حيث لا فرصة ولا خلاص لغير المؤمن بها وبما يترتب عليها من اعمال تنجي من عذاب اليم.

2- الصبر على الأذى والاهانات من اجل تهذيب النفوس وعدم الانتصار لها من قادحٍ وسابٍ مخالفٍ في مجتمع اخلاقه تمجد ذلك السلوك، فقد

تؤدي وطأة نعل على ازار متمكن عن غير قصد الى القتل أو لحرب قبائل لأن إزار فلان سقط بفعل فاعل من بني فلان، منطق أرحم منه ممارسات مفترسات غابات أدغال افريقيا، كان الرسول في كل استفزاز وتحدٍ يؤمر من الحق بالقول [فاصفح عنهم وقل سلاما فسوف يعلمون[46]] [فالصفح الصفح الجميل [47]]

3- أسلوب التشكيك في قدرات المنحوتات المعبودة كآلهة عن طريق الأسئلة المباشرة عن قدراتها بأسلوب عقلي حكيم غير مصادم ولا مستفزٍ يجعل المتلقي يستمع بجد للمُحاور، ويصدقه غالبا ويتحول عن ايمانه بالأوثان. [قل أريتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته[48]] ؟

مرتكزات أربع شكلت نهج الدعوة المحمدية منذ البداية وحتى النهاية، الإنذار، والصبر على الأذى ، والصفح عن المعاندين، ووعظ الجاحدين بحكمة المصلحين، ولأن محمدا رسول الرحمة للناس كافة نجد له أساليب دعوية متعددة حسب المدعوين، فدعوة الوثنيين مرتكزة في الأساس على الإنذار والتخويف والتنبيه على صنائع تجلت صنعته في انفسهم وفي الطبيعة من حولهم من حركة كواكب، واضواء نجوم، وأمواج بحار، والوان جبال، وسحب وما تنبت من مقتات لهم على اختلاف لونه وطعمه، مختلف كذلك عما تأكل أنعامهم رغم ان السقي من ماء واحد والانبات في أرض واحدة.

ودعوة الأمتين اللتين كان الوثنيون يعتقدون فيما يجمعهم بهما، وما تساعدان هم به من أسئلة يعتقدون انها تعجيزية وفاحمة للرسول، والتي عرفوها من الوحي المنزل على رسلهم ليظهروا لحلفائهم انما جاء به محمد ليس من عند الله.

كانت دعوته لهؤلاء من داخل ما جاء به رسولهم من قبل سواء نسوه ام اخفوه أم بدلوه، ليدحضوا به الحق الذي شعروا بعودته مع هذا النبي، الامتان نسبتا لخالقهم ولدا [وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى

---

[46] سورة الزخرف الآية 89
[47] سورة الحجر الآية 85
[48] سورة الزمر الآية 38

المسيح بن الله [49]]، فصارتا مع الوثنيين في خندق يجمعهم مشترك حيث يعتبرون هم ايضا اصنامهم المحببة بما فيها الملائكة بنات الله المُقربة منه، عاضدت هذه الأمم الثلاث في جميع مراحل الدعوة المحمدية، وتعاونت ليطفؤوا نور الله بأفواههم.

هنا عند ذكر تداخل معتقدات الامتين مع معتقدات الوثنيين، أذكر بأن مما واجهني من عقبات كان أسئلة لها قدر من الوجاهة، بقدر ما تبعث في النفس من الحيرة ، والتي منها كيف ضاع من العرب ما نزل على إسماعيل حتى لا يسمع له ذكر، كما هو حال مؤمن قوم فرعون الذي ذكرهم بيوسف عليه السلام، فقال لهم [ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا[50]] لم يذكر القرآن قولا لأحد من العرب قال فيه لما دعاهم رسول الله الى الإسلام ،لقد كان فيكم إسماعيل ابيكم، بل نسوه لدرجة أنهم لا يطلقون اسمه على أبنائهم، ولا ذكر له في أسماء أباءهم؟ ومنها أين بعض مما نزل على إبراهيم الذي بنى البيت ووضع قواعد الحج، وكانت عنده صحف فيها وحي مكتوب؟

أما الرسل الذين عاشوا في جزيرة العرب فلا ذكر حتى لأسمائهم، فكيف ببقية من تعاليمهم وتدين أممهم، واخلاق صالحي اتباعهم، وذكر نحلهم والاشارة إلى بعض هديهم، فقط بيت شعر واحد لداعية السلام حكيم شعراء آخر العهد الوثني، زهير بن ابي سُلمى ، يذكر فيه أشأم قوم ثمود، ويخبر القرآن محمدا انما قص عليه من انباء الغيب [ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين[51]] ومن أنباء الرسل ومعانديهم ما يثبت به فؤاده ويجعله صبورا على الأذى.

ولم ينج صاحبنا من إساءات مماثلة، بل أسوأ ليس من المشركين ، بل تسربت إلى بعض اتباعه المؤمنين من الأجيال اللاحقة ،سيتخلل هذا العمل نماذج منها في سياقات مختلفة، وفي هذا المقام تندرج خرافة أن

---

[49] سورة التوبة الآية 30
[50] سورة غافر الآية 34
[51] سورة هود الآية 49

المبعوث رحمة للعالمين حاول الانتحار في لحظات ضعف نفسي، فتسلق الشواهق عازما أن يتردى فيتخلص مما هو فيه، والسبب كما يذكرون تصريحا أن الوحي أبطأ عنه، والغريب أنهم يعرفون كم يوما لم ينزل عليه وحي!!، عند أحدهم اثنا عشر يوما أو خمسة عشرة يوما، او خمسا وعشرون يوما وحتى أربعين يوما " فجاءت العوراء بنت حرب حمالة الحطب وقالت له "اني لأرجو ان يكون شيطانك قد تركك لم اره قربك منذ ليلتين او ثلاثا[52] " وكأنها تعرف الملك حين يأتيه بالوحي؟ وفي تفسيرهم أسباب فترة الوحي المزعومة، يقولون إن كلبا مات تحت سرير نومه، وانه هو السبب في توقف الوحي كما أخبرت خادمته التي اشتكى لها توقف الوحي، سائلا اياها ما ذا احدثوا في البيت؟ ولما اكتشفت الجثة التي يبدو أن لا رائحة لها وإلا لتنبهوا لها من أول يوم ، ولم يحتج أن يقول له الملك "أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب أو صورة[53]".

هذا هو السبب عند بعضهم، وعند آخرين أن الأمتين من قبلنا لما امتحنتا صدقه بسؤال عن أصحاب الكهف وعد بأن يجيبهم غدا فعوقب بأن توقف عنه الوحي نكاية على ما يبدو وكأن الله يقف إلى صف الممتحنين له صلوات الله وسلامه عليه وآله، وأنه بعد تلك المحنة أنزل عليه [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا] انتبهوا الآية قالت فاعل ولو كان الأمر يتعلق بجواب سؤال لكان الأنسب أن تقول ولا تقولن إني مجيبكم غدا، القرآن لم يتحدث عن فترة الوحي هذه فكيف نصدق أنها حدثت أصلا حتى نرتب عليها أنه حاول الانتحار بسببها، هل القرآن سيترك أمرا بهذه الخطورة دون أخبار النبي وتوجيهه؟.

من المعلوم أن ضعاف النفوس والعجزة هم من يتخلصون من الصعاب بالانتحار، لكن هنا نجد المخدوعين بسرديات مشوهي مسيرة الوعد الحق ينساقون وراء تلك الشبهة الكيدية، وكأن الأمر عادي جدا وحقيقي، وكأن قول الحق [ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما[54]] الرسول ليس معنًى بها؟ يحسبونه هينا ونحسبه عند الله عظيما.

---

[52] رواه البخاري متفق عليه.
[53] صحيح البخاري 1685
[54] سورة النساء الآية 29

سنوات مكة تكاد تكون كلها انذار وتخويف ووعيد، ومن جهة أخرى ترسيخ لقيم خلقية سامية في النفوس الباحثة عما يؤهلها لتمثل خطاب رباني مخلص من كل نزغ شيطاني بأسلوب يلامس العقول والعواطف ،فالآيات التي تتلى على السامع تدور حول أنظروا ما حولكم كيف بدأ ومن بدأه؟ ثم فكروا في أنفسكم من أين اتيتم ، ثم إلى أين أنتم سائرون، وإلى متى أنتم باقون،؟ محمد الرسول وحده لديه الجواب المقنع عن سؤال من أين جئتم ومن جاء بكم ومتى والى أين انتم ظاعنون.

بعد أزيد من عقد وعلى سنن الذين سبقوه، ما ءامن مع محمد إلا قليل من الذين لا يأبه بهم، رسخ فيهم مفاهيم التوحيد، ومفاهيم الصبر والجلد وتيقن النصر والتمكين بعد الذل والمهانة والحصار في أزقة مكة التي لم تعد تحتمل أحاديث العرب، كل العرب عن الوعد الحق وعن محمد الرسول الصامد المتيقن من وعود باريه بأنه ناصره ورافع الذل والتنكيل عن المستضعفين الذين هم أكثرية أتباعه.

ثلاث تهم ينفيها القرآن ويثبتها التراث.

أولاهما رأيت الجن وهم كائنات غير مرئية خلقوا من النار، يرمزون في السرديات الدينية للشر، حيث نجح رأسهم في اغواء الكائن الطيني فعُوقبا بأن اخرجا من جنات الخلد، ليصاحب الكائن الناري غضبا من الخالق ويأساً من العفو ووعودا بالبقاء حيا، وتسليطا على الكائن الطيني وما ولد مغويا لهم و آمرا لهم بارتكاب كل فحش ومنكر مزينا لهم ما نهى عنه الرب من المعاصي، حتى الرسل المجتبيين المحميين من الخالق حاول هذا المخلوق أن يجلب عليهم خيله ورجله، البعض منهم كاد استغفاله ملقيا في امنيته [وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلق الشيطان ثم يحكم الله آياته[55]] لولى تدارك العناية الالهية لهم، منهم من أمر بالاستعاذة بالخالق كلما شعر بنزغ من الشيطان.

ورغم أن جل كتب التراث تحاول الفصل بين نوعين من هذه الكائنات جاعلة

---

[55] سورة الحج الآية 52

موحديهم جنا وملحديهم شياطينا فإن الوحي لا يعطي هذا التقسيم بل نص على ان رأس الشر ابليس الشيطان [كان من الجن ففسق عن امر ربه[56]]. كما انهم خلقوا للعبادة مثل الكائنات الطينية [وما خلقت الجن والانسان الا ليعبدون[57]] ونص كذلك على اشتراكهم في عداوة الرسل [وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا [58]] وقرنهم الوحي معا في ارسال الرسل اليهم [يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا [59]] ومع ذلك تصر السرديات التراثية على ان الرسل من الإنس فقط. لم نعثر بعد على من تساءل عن الآية [ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك [60]] هل يمكن ان يكون بين غير المقصوص اخبارهم رسلا من الجن مثلا؟ .

هذه المخلوقات تحدث عنها الوحي كثيرا سلبا في الاغلب وايجابا في النادر، حيث نجدهم في جل مواطن الشر ، كاستراق السمع الاحاديث بينية موحى بها الى كائنات مجتباة (الملائكة) غير مرئية هي الاخرى، ترمز للخير في العقل الديني، لم يذكر الوحي مما خلقت -وان كانت السرديات التراثية تجعلهم خلقوا من نور؟- واصفا اياهم بالطاعة والاخلاص وعدم العصيان، وانهم مكلفون بأعمال متعددة، منها ما يخص الكائن الطيني، ومنها ما يشترك معه فيها غيره من الكائنات.

أُخبر محمد في القرآن بأن نفرا من الكائنات النارية صرفوا اليه وهو يتلوا القرآن وانهم نصتوا لسماعه ثم عادوا الى قومهم منذرين لهم، وقصوا عليهم خبر ما سمعوا واصفينه بأنه كتاب [أُنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يده يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم [61]] وأن اتباعه يهدي الى الرشد. امران يستوقفان في هذه الحادثة، الاولى ذكرهم لموسى

---

[56] سورة الكهف الآية 50
[57] سورة الذاريات الآية 56
[58] سورة الانعام الآية 112
[59] سورة الأنعام الآية 130
[60] سورة غافر الآية 78
[61] سورة الاحقاف الآية 30

وليس لعيسى، صاحب الكتاب الاحدث نزولا، والامر الثاني كون محمد في القرآن ومن خلال سياق الآية لم يرى نفر الجن الذين جاءوه [واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن[62]] وهو ما تؤكده الآية الاخرى ايضا [قل أوحي الي انه استمع نفر من الجن [63]] ورغم ان هذه السورة التي تحمل اسم سورة الجن ورد فيها احاديث مفصلة عنهم وعن أعمالهم واضلالهم للإنسان، وشعورهم بأن انقلابا كونيا بدأت ارهاصاته مع صاحب الكتاب الجديد، وانهم حسوا نذر ذلك في الشهب الطاردة لمسترقيهم، وأن مصادر معلوماتهم قد سدت ، فإن الوحي مع التفاصيل التي ذكر عنهم لم يشر ولو تلميحا الى ما يفهم منه أن محمدا الرسول كان يراهم. او يخاطبهم. عكس السرديات الروائية التي تجعل منهم حتى مشاركين في معارك العهد النبوي وأنهم يقتاتون على فضلات العظام التي يرميها البشر؟.

الآيات الرابطة بين افعال الجن او الشياطين الشريرة وافعال البشر الاشرار وتعاونهم كثيرة جدا، بل والمتحدثة عن المصير المشترك لزمر الاشرار من الفريقين يوم الحساب كثيرة هي كذلك، الا ان القرآن خال من اي ذكر لما يفهم منه أن بينهم لقاءات حسية بل تقتصر الرابطة بينهم على وسوسة الجني وزخرفته للمعاصي وانصياع الإنسي له واتباعه لما يأمره به حتى سمى الوحي علاقتهما بالقرين [قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد [64]] و[قيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيدهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين [65]]

ثانيا محمد البشر:أكثر الموضوعات تناولا وإثارة حول محمد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في القرآن موضوع البعث وأسئلته المتكررة مع اجاباتها المفحمة، واسئلة حول طبيعته البشرية حيث التشكيك في ان تكون له حياة طبيعية مثلهم، من أكل وشرب وتسوق

---

[62] سورة الاحقاف الآية 29
[63] سورة الجن الآية 1
[64] سورة ق الآية 27
[65] سورة فصلت الآية 25

وتأسر، ومع ذلك يكون مختارا لتلقي الوحي من الخالق وتبليغه لهم؟ ولم يقتصر التشكيك بل والتكذيب عند هذه الموضوعات بل تجاوز إلى النص الموحى اليه، وحديثهم عن جهات بشرية يستقى منها محمد معلوماته الرسالية؟ معتبرين ما أنزل اليه مجرد [افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون [66] وأن الرسول ليس سوى [رجل أفترى على الله كذبا [67]] وما هم له بمصدقين، ولعلهم شعروا بمحاصرة الأسئلة القرآنية المكثفة والاجابات المتحدية على لسان محمد الرسول مثل [فاتوا بعشر سور مثله مفتريات [68] بل [فأتوا بسورة من مثله [69]] مع أن حامله [بشر مثلكم يوحى الي [70] مسبوقا برسل قبله يوحى اليهم أيضا مع أن لهم طبيعة البشر من أكل وتسوق وتزوج وانجاب،[وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق [71]] و[ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية [72]].

ثالثا الصرع والاضطراب النفسي عند نزول الوحي: مثير للانتباه كذلك كيفية نزول الوحي ، وما يترتب عنها من حالات نفسية لرسول الله في كتب التراث، نقلوا اربع حالات تظهر عليه ، احداهن أنه سئل عن كيف يتلقى الوحي فرد بالقول "أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول [73]" الحالة الثالثة وردت في خبر قال راويه "يسمع عند وجهه كدوي النحل" وحالة رابعة قال راويها "وقد رايته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا" في جواب السائل واضح ان الوحي ينزل عليه بحضورهم ولا ينتبهون له وإلا لما كان للسؤال سببا.

المثير للتساؤل ان المجتمع الوثني في مكة الذي اختلق عديد الصفات

---

[66] سورة الفرقان الآية 4
[67] سورة المؤمنون الآية 38
[68] سورة هود الآية 13
[69] سورة البقرة الآية 23
[70] سورة الكهف الآية 110
[71] سورة الفرقان الآية 20
[72] سورة الرعد الآية 38
[73] لا يحدثون هل الحاضرون كانوا يسمعون صلصلة الجرس هذه.

القادحة لإلصاقها بالنبي مثل السحر والكهانة والجنون، لو عرف أو شاهد واحدة من هذه الحالات التي طالعنا بها تراث العهد المدني عن لحظات نزول الوحي لكفتهم سخرية ولتراقصوا فرحا ولما احتاجوا إلى وصفه بالجنون أصلا.

اما في القرآن وعند وصف حالته الجسدية والذهنية عند تماهيه مع عالم المثل لاستقبال الوحي نجده متحمسا حاضر الذهن مرددا ما يتلى عليه مستعجلا ما يسمع قبل ان يقضى اليه وحيه، حيث يؤمر بالتريث وعدم ترديد ما يوحى إليه [لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأنه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه [74]]

ففي هذه الآية عُلِّم بالمراحل التي تمر بها عملية التلقي وما عليه التحلي به أثناءها، وفي مقام آخر يؤمربـ[ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه [75]] فلو كان في الأوضاع التي ذكرت لما كان مستساغا أنه واعيا ومدركا لما يتلى عليه أصلا، بل إن آية مكة تحدد الطريق التي يخاطب بها الرب رسله وهو منهم وليس فيها صرع ولا عرق ولا صلصلة ولا أي شيء يشي بالاضطراب النفسي أو عدم الحضور الذهني [ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم [76]]

أمية كتابة أم امية ثقافة؟

تكاد تكون من المسلمات مقولة أن محمدا رسول الله كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ، بل يرى البعض انها من خصائصه الحميدة التي تجعله مميزا عن غيره من الرسول الذين سبقوه، مع عدم وجود دليل يثبت أو ينقي أنهم كانوا يكتبون؟ هذا الأمي حسب رأيهم اختاره الله ليبلغ رسالته للناس كافة، مختوم به عصر النبوءات، متمسكين في ذلك بقول الحق [الرسول النبي الأمي الذي يجدون مكتوبا عندهم في التورة والانجيل [77]] غير

---

[74] سورة القيامة الآية 16
[75] سورة طه الآية 114
[76] سورة الشورى الآية 51
[77] سورة الأعراف الآية 157

مهتمين بعديد الآيات التي ورد فيها تصريحا وليس تلميحا ما يفيد بأنه كان قارئا كاتبا، والتي منها [وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيميك إذا لارتاب المبطلون [78]] وقوله على ألسنة المشركين [وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا [79]] والتي وردت في سياق اعتبارهم أن ما نزل إليه هو مجرد اساطير الأمم السابقة؟ وانه اكتتبها وصار يرددها وهي تملى عليه ومعلوم ان الاملاء يقتضي كتابة ولو لم يكن كاتبا لنفسه لذكروا اسم الذي يكتب له و لنسبوا له ما نزل على محمد.

لا يعطون كبير اهتمام لكون اليهود كانوا يطلقون على العرب "أميين" [ليس علينا في الاميين سبيل [80]] كما يقول العرب لغيرهم اعجميين بل إنهم اخبرونا كذلك انه عند كتابة صلح الحديبة لما اعترض القرشيون على كلمة " محمد رسول الله" في الوثيقة مسحها هو بيده الشريفة، فمن اداه وهو الأمي بأن ما مسح هو الجملة المُعترض عليها؟ تكون المصادر الروائية خُرساً حتى عن طرح سؤال مثل هذا.

الفصل الثالث.

الطريق إلى يثرب

قرآن العهد المكي لا حديث فيه عن هجرة محمد رسول الله، لكن به ترميزا يتضمن تهديدا ووعيدا للملء الأعلى المُستفز للرسول من اجل إخراجه ما يعني أن الموضوع كان يخطط له [وإن كادوا ليستفزنوك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلفك إلا قليلا سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تبديلا [81]].

سنة العديد من الرسول الذين قُصت عليه أنباءهم عند ما تعرضوا لاستفزازات مماثلة هي الهجرة، منهم من هاجر فارا عن بلاد ظالمي أهلها واعلن جهارا نية الهجرة والخروج، مثل سيدنا إبراهيم بعد نجاته

---

[78] سورة العنكبوت الآية 48
[79] سورة الفرقان الآية 5
[80] سورة آل عمرن الآية 75
[81] سورة الاسراء الآية 76

المعجزة من حادث الحرق فقال [أني مهاجر إلى ربي [82]] ونجد لوطا الذي هدد بالطرد حيث خاطبوه متوعدين [لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين [83]] ثم أمر عن طريق ضيوفه المكرمين بالخروج مهاجرا من تلك القرية المغضوب عليها لأن عذابا خاصا سيحل بها بُعيد مغادرته وأهله ليلا [فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امراتك إنه مصيبها ما اصابهم إن موعدهم الصبح [84]]

ولموسى هجرتين الأولى كانت قبيل ممهدات النبوة وتآمر الملء الأعلى لقتله حسب صاحبه الناصح الكتوم،[إن الملء يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين [85]] في هذه الحادثة خرج خائفا يترقب الشر، ثم عاد رسولا مأمورا بالتبليغ، وبعد تطورات أحداث دعوته المتشنجة، وبعد جولات من المواجهة الجدلية واتخاذ قرار قتله [ذروني اقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد [86]] أمر بالخروج بالقلة المؤمنة من قومه[وما أمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه ان يفتنهم [87]] أجل أمروا بالخروج ليلا كذلك لأن الأمر على ما يبدو كان جللا [فاسر بعبادي ليلا إنكم متبعون[88]].

لم يكن صاحبنا ببدع من هذه السنن، فنجد إشارتين إلى محاولات قتله أو إخراجه من قريته الأكثر ضعفا من القرى الأقوى التي أخرجت رسلا قبله وكيف كان مصيرهن لما فعلوا ذلك [وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم [89]] من خلال هذه الآية يُلاحظ أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أخرج من قريته ولم يهاجر بمحض ارادته، وهو ما نجد له إشارات في قران العهد المدني في سياق الإخبار عن بعض خلفيات العهد المكي وما خططت له قريش وافشله الرب.

---

[82] سورة الصافات الآية 99
[83] سورة الشعراء الآية 167
[84] سورة هود 81
[85] سورة القصص الآية 26
[86] سورة غافر الآية 26
[87] سورة يونس الآية 83
[88] سورة الدخان الآية 23
[89] سورة محمد الآية 13

جاءت الهجرة في كتب التراث على خلفية بيعتي العقبة واشتراطات الرسول على مبايعيه المنعة من العدو، والتزامهم بحمايته من كل خطر يتعرض له داخل يثرب وليس خارجها ورد ذلك الخبر في المصادر اثناء سردها الاستحبالات غزوة بدر؟ كما أطبقوا على أنه خرج من مكة خائفا متخفيا مع صاحبه الوفي ومولى الصاحب، والدليل، وغنم التمويه وإخفاء الأثر وذات النطاقين، وشراء مطيته عليه الصلاة والسلام ، بينما نجد في القرآن أن الملء الأعلى من قريش وضعوا ثلاثة خيرات للتخلص من "محمد الصابئ" أن يعتقل ، أو يقتل، أو يخرج كرها، هذه الخيرات هي التي ذكر القرآن[وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك [90]]

وقد خرج متخفيا سنة الرسل من قبله مخلفا وصيه (عليا عليه السلام) في البيت للتمويه على الزمرة التي تحاصر المنزل، وتحدثت عديد الآيات عن خروجه بصيغ متعددة منها، قوله تعالى (وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) وقوله (إِلّا تَنصُروهُ فَقَد نَصَرَهُ اللَّـهُ إِذ أَخرَجَهُ الَّذينَ كَفَروا) والإخراج يكون بالطرد المباشر وبالضغوط والتهديد الذي يستدعي الهرب خفية وآية أخرى تقول عنهم (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ [91]) وفي سياقات مماثلة تنهي آية أخرى عن موالاة الذين اخرجوه أو تمالؤا على إخراجه والذين ٰامنوا معه (ِإِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ [92])

حديث وأحداث طريق يثرب

كانت مدينة واحات النخيل ذات الطراز اليمني المعروفة بيثرب، المعمرة بأقوام من أعراق ونحل مختلفة، الغلبة فيها لمهاجرة اليمن وفق سرديات تراثية لا تخلوا كذلك من طابع التشويق ، يساكنهم يهود وبيوتات من أرومة قبلية حطت الرحال في المدينة الجاذبة بحكم موقع طرق التجارة، ووفرة مياه سُقيا جنان النخيل والبساتين، كانت هذه المدينة على موعد غير مكانتها من مدينة على طرق القوافل تعيش استقرارا اقتصاديا إلى مدينة مقدسة، فانتقلت من تسمية يثرب إلى مدينة رسول الله وعاصمة تهدد امبراطوريتي بيزنطة وفارس.

---

[90] سورة الانفال الآية 30

[91] سورة الممتحنة الآية 1

[92]

بعد سنوات مكة الصعبة على محمد رسول الله والذين معه من السابقين الذين يشكل المهمشون والمستضعفون أكثريتهم، حط الرحال بيثرب قادما عبر انجاد ومفازات غير معروفة إلا لقلة من الصعاليك الذين تحاصرهم الجرائم وتطاردهم القبائل، حيث اختير أحدهم ليكون هاديا في تلك الأرض الموحشة للهادي للنور المبين.

خرج صاحبنا من مكة خائفا يترقب، سائرا على سنن الذين سبقوه من الرسل، وقد أخبرنا الوحي عن النقطة الأخطر من الطريق غير السالكة وغير الآمنة، حيث آوى إلى غار فصل القرآن الأحداث داخله وما دار بينه وبين رفيقه تفصيلا.

من سياق الخبر فإن الوضع كان صعبا ومخيفا وكان صاحبه قلقا بل خائفا، لم يرد ذكر في القرآن لحيات عرَّضَ لها الصاحب الوفي جسده؟ تحدث الوحي فقط عن الحماية الإلاهية وتأييدها له [وأيده بجنود لم تروها] فلا ذكر فيه لسردية العنكبوت التي بنت بيتا للتمويه ، ولا عش هندسته وانجزته حمامة بسرعة غير معهودة، ولا ذكر لقوله لصاحبه "ما بالك باثنين الله ثالثهما" وإنما طمأنه بالقول [لا تحزن إن الله معنا [93]].

هذا ما سجل القرآن عما حدث في الغار، بدون رتوش وزخارف القصاص بأسلوبهم الذي يعتمد على التلاعب بالعواطف للتأثير على المتلقي وجعله يقبل ويصدق ويتمسك بأخبار منافية لتلك التي وردت في القرآن، من أجل اسناد أدوار مؤثرة في الحدث تأثيرا كبيرا هي عند التحقيق من خيال القصاص والنساخين، وحتى المؤلفين استجابة لثقافة عصر التدوين واصطفافات أهله السياسية وشحنه القبلية المانحة أدوارا، والمخفية أحداثا ترى فيها حطا وتنقيصا من ابن العشيرة أو شيخ المذهب أو قائد الطائفة، فضاع الكثير وادمج الكثير الغريب نتيجة لعدم اعتمادهم القرآن مصدرا للأخبار، - إن خالف الرواة خبره ألغيت أخبارهم- لكن المؤسف أن العكس هو ما حصل في جل المدونات عن أحداث الفترة النبوية ، هذا ما حدث في الغار وهو مخالف تماما لما هو مدون في كتب التراث المعتمدة،

---

[93] سورة التوبة الآية 40

فلا عنكبوت ولا حمامة ولا حيات لدغت صاحبة الذي كان يعرض لها جسده حتى لا تلدغ الرسول ومع ذلك لم يتسمم ولم يكن للدغات أي تأثير أو تداعيات؟!.

حط الركب الرسولي بيثرب التي كانت منقسمة حول الوافد الجديد، الكثير من أهل المنعة كانوا ينتظرون مقدمه بل هم من عرضوا عليه الحماية والنصرة إن هو حل بدارهم فيما يعرف ببيعتي العقبة المكيتان اللتان لم يرد لهما ذكر في القرآن ، بعض المتمكنين من سادة يثرب لم يكونوا متحمسين للوافد الجديد لأنهم لم يكونوا جزئا من التزامات البيعتين.

لم يتحدث القرآن عن أحداث الوصول وردود افعال السكان غير المسلمين، فقط احتفظ لنا التراث بوثيقة واحدة مكتوبة بأمر من النبي، وضعت اطارا جديدا لخط التعايش والتعاون بين السكان على اختلاف اديانهم، وهم معتنقو الدين الجديد من المحليين والوافدين اليهم من مكة، واليهود المستقرين والوثنين من السكان الاصلين ، هذه الوثيقة لم يعطها المسلمون بعد النبي أي اهتمام ولم يعملوا بما تضمنت رغم انها تعتبر أقدم وثيقة لدولة مدنية حسب المحفوظ من تاريخ الأمم، تحدد حقوق وواجبات كل السكان بغض النظر عن أديانهم وقبائلهم وانتماءاتهم وتضمن حرية المعتقد.

ويمكن القول بشيء من التحفظ أن حبر "صحيفة المدينة" لم يجف حتى ظهرت التناقضات الاجتماعية والسياسية، بين المجتمع اليثربي المنقسم أصلا بسبب حرب الاخوة الأشقاء "الأوس والخزرج"، حيث لكل من القبيلتين حلفائها من اليهود، وبعض متنفذيها الوثنيين، تناقضات ظلت تتمظهر خلال العهد النبوي وتحدث الوحي عن بعضها في مواطن عديدة، وكان أكبر تجل لتلك التناقضات وما ترتب عنها من ردود أفعال، ظهور تكتل عرف بالمنافقين ولعب أدوارا كبيرة شكلت تحد حقيقي للدعوة الجديد ومصدر ازعاج هدد في اكثر من مناسبة تماسك الكيان المسلم الوليد، وظل يتطور ونجح في زرع البلبلة خلال احداث عديدة، واندمج في جسم الأمة الوليدة وأصبح جزءا كبيرا منها، وقد تمكن وسيطر بعد فتح مكة حيث دخل حلفائه طلقاء مكة حلفاء اليهود في محطات مختلفة من تاريخ العهد

النبوي واختطفوا الإسلام وطبعوه بطابهم إلى اليوم.

بعد هذا التأطير سنتحدث عن هذا المكون الذي أخذ حيزا كبيرا في الوحي نظرا للأدوار السلبية التي قام بها حيث لم يتوقف عند زرع الشقاق في جماعة الايمان والتحالف مع الأعداء بل وصل مرحلة محاولات اغتيال النبي، وهذا مما سجل القرآن الكثير منه وتحدثت كتب الأسلاف عن النزر منه وصمتت عن جله الأخطر، تكتما على أدوار لرموز لا يُسمح بالحديث عن جناياتهم ليس في حق الأمة فحسب بل في حق رسولها.

لا غرابة في محاولات قتله فقد قتل له اخوة من النبيين والرسول، واخبرنا الوحي بأنه مثلهم [وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتهم على أعقابكم [94]] .

من هم منافقو سورة البقرة.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وصفان أطلقهما القرآن على مجموعتين من المجتمع النبوي لم تكونا مخلصتين، وكانت مواقفهما متناغمة مع طموحات الذين كفروا في محاولاتهم القضاء على الدعوة ورسولها، ورغم أن المصطلحين متداخلين بحيث يمكن ان يعتبر من في قلبه مرض منافق أو العكس فإن اختلافات عديدة يمكن تلمسها عند المجموعتين، ومع أن بدايات القرآن تحدثت عنهما في سورتي المدثر والعنكبوت، فإن عصر التدوين لم يشأ أن يكون العهد المكي عرف نفاقا تسترا على رموزهم من الطلقاء الذين كانوا منافقين، يقول السعدي في تفسيره للآية [ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الأخر] "ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة, وبعد أن هاجر, فلما كانت وقعة " بدر " وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم, فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة".

ونحى البغوي نفس المنحى في أن النفاق لم يظهر إلا بعد بدر ذاكرا أسماء اشخاص معتبرا أنهم رؤوس النفاق كما في السردية التاريخية فيقول مثل سابقه في تفسير الآية الثامنة من سورة البقرة [ومن الناس من يقول آمنا بالله:] "نزلت في المنافقين عبد الله بن أُبَي بن سلول،

---

[94] سورة آل عمران الآية 144

ومعتب بن قشير، وجَدّ بن قيس وأصحابهم حيث أظهروا كلمة الإسلام ليَسْلَمُوا من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه واعتقدوا خلافها" وعلى نفس الرأي سار بن كثير في تفسيره لنفس الآية حيث يقول "وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافه ....، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته ، وأعلى الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي بن سلول ، ....هذا أمر قد توجه ، فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد"؟ !

غير أن حديث سورة البقرة التي هي حسب جميع المفسرين أول سورة نزلت بالمدينة عن جماعات أو صافهم هي أوصاف المنافقين، يثير اشكلا لأنهم رسخوا في الأذهان ان النفاق بدأه عبدالله بن أبي بن سلول الذي أسلم بعد غزوة بدر في نهاية السنة الثانية للهجرة أو بداية الثالثة، فمن هي هذه الجماعة التي قال عنها القرآن في الآية الثامنة من البقر وما بعدها؟ .

[وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ (8) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ (11) أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (14) ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (15) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (16) [95]

هذه الجماعة الواضح أنها ليست من الأنصار، لأنهم في تلك الأيام هم اهل الشوكة في مدينة يثرب مؤمنهم ظاهر وكافرهم غير مستتر، لكن أهل المغازي والسير والتفاسير والمحدثين لا يقدمون شيئا عن المُحدث

[95] سورة البقرة من الآية 8-16

عنهم في هذه الآيات بل اكتفوا باللفظة المطاطة غير المحددة "منافقون"، ولاشك أن هذه المجموعة تختلف عن الجماعة الأخرى التي حاولت صد النبي عن وقعة بدر وكان دافعها الخوف من الموت، والتي تحدثت عنها سور الانفال [كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين الكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون [96]] لأن القرآن وصفها ب "فريقا من المؤمنين" لكن هل هذه الجماعة الأخيرة التي حاولت صد النبي عن القتال في بدر هي نفسها التي كادت الانسحاب عنه أثناء المعركة وقال عنها القرآن أيضا [إذ يريك هم الله في منامك قليلا ولو أراك هم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم ذات الصدور [97]] أم أنهما جماعتين؟ تظل المصادر صامتة عن ذكر الأسماء الصانعة لهذه الاحداث التي سجل القرآن من تاريخ محمد وأصحابه، ولعل الامام محمد بن جرير الطبري رحمه الله كانت له اكراهاته المناعة من ذكر الأسماء عند ما يعلل سكوته "بخوف التطويل".

محمد الرسول المعصوم أم المسحور.؟

المسحور بصيغة اسم المفعول به، والساحر بصيغة اسم الفاعل، تهمتان ظل مشركو مكة يصفون بهما محمدا رسول الله، تنفيراً وذماً لما عجزوا عن الرد والإقناع بأنهم وأباءهم كانوا على نهج قويم، يقولون إنه يسحر الناس فيتبعونه ويتركون ما كان عليه آبائهم، ومسحور لأن كائنات غير مرئية (الجن) تملي عليه أساطير يبثها.

كان الموقف هكذا في العهد المكي، ومع ذلك لم يزد الدعوة الا انتشاراً وبخطى ثابتة، تحدث القرآن المكي بإسهاب عن هاتين التهمتين وعن مروجيهما، متوعدا المشركين الذين وصفوا النبي بأنه مسحور في موضعين من سورتي الاسراء والفرقان المكيتين [إذ يقول إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا [98]] والثانية [وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا أنظر كيف ضربوا لك

---

[96] سورة الانفال الآيتين 5-6

[97] سورة الانفال الآية 43

[98] سورة الإسراء الآيتين47-48

الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا [99].

مفهوم جدا التهمة التنفيرية التي يوجهون لمحمد رسول الله، لكن أن يأتي تأكد تهمة السحر في كتب المسلمين بل وصحاحهم ومروية على ألسن المصطفين من خيرة أصحاب محمد فأمر غير مستساغ ولا مفهوم الدوافع، ولترسيخ هذه الفرية كانت المبرأة الطاهرة هي المُفترى عليها في هذا الموضوع، نعم هي وحدها دون الأخريات اللائي يشاركنها مساكنة محمد رسول الله ويتساوين معها في مدة اقامته في بيوتهن، أجل لاختيارها أسبابه السياسية حسب ما اعتقد ، فهذه الفاضلة لها أدواراً سياسية سلبية قامت بها، فاصبح كل فعل لا يليق بمقام النبوة ينسب اليها وأنها مصدره، وأحيطت بهالة من التقديس "الظاهر" لم تحظ بها أخواتها، ليس حبا فيها وإنما لتمرير وقاحات أتى بها المنحرفون المتمكنين فيما بعد وحتى تكون لها مصداقية فينبغي ان تنسب لها هي بالذات نظرا لحضورها في الذاكرة المجتمعية.

أصبح لكذبة أنه سحر زخما حتى صارت مسلمة لا ينجوا ناكرها من تهمة الشذوذ أو الزندقة او معاداة الملة، فقط لأن الرموز دونوها في كتبهم التي لا يأتيها " الباطل ولا يرد فيها إلا حقا" !! بالنسبة لمقلديهم، تذهب هذه الفرية بعيداً فتقول إنه لما سحر فَقدَ العقل فسار يظن انه فعل أمرا لم يفعله، وأنه لم يفعل أمرا وقد فعله ، وهذا يستحيل عقلا ونقلا، فالعقل يقول لو ان وضعه صار كما قالوا وأمرهم بحرام او نهاهم عن حلال، إن لم يستجيبوا فعصيانه يوجب النار، وإن استجابوا فعلوا حراما، ونقلا لأن القرآن ينفي وقوعه لأن الله عصم نبيه من الناس، [والله يعصمك من الناس[100]] وكأن الساحر ليس من الناس فسلط على النبي؟ ثم ماذا تستفيد الأمة من متابعة المشركين في أن نبيها سُحر؟

---

[99] سورة الفرقان الآيتين 8-9

[100] سورة المائدة الآية67

محمد المبعوث رحمة والدماء؟

عشرات الآيات الآمرة للنبي بالعفو والصفح والرفق بالناس لم يستحضرها جل مدوني التراث ، فنسبوا لجنابه الشريف أحداثاً لو نطقت الوحوش المفترسة لأشفقت منها ، فقدموا له سيرة تقطر دما ، ونسبوا له أحاديث تؤكد ذلك ، منها أن رزقه تحت رمحه، وأنه بعث بالذبح، (فأين الرحمة التي قال الله إنه بعثه بها؟) وأنه نصر بالرعب مسيرة شهر، ولم يلاحظوا أن معركة أحد وقعت على أطراف المدينة وقد هزم فيها جيشه، وأن معركة حنين لا تبعد من المدينة مسافة شهر ولم ينصر فيها؟.

هنا نستحضر غزوة بني قريظة، التي كتبت بروايات يهودية محبوكة، ومسبوكة بأقلام مسلمة ففي مغازي بن إسحاق، والواقدي، وطبقات بن سعد وغيرهم قالوا إن قتلى اليهود بين (400) الى (900) ترى أي الأرقام صحيح ؟ وقالوا إن فيهم نساء وشيوخ وغلمان، والاضفاء رتوش من الشرعية على العملية نقل البخاري عن السيدة عائشة أن يهودية كانت معها فنوديت للقتل فقامت مستبشرة ملبية النداء؟ وقالوا إن كل " من أنبت" أي بلغ سن الرجال قتل تنفيذا لحكم حليفهم سعد بن معاذ الأوسي فيهم.

اللافت في أمر تدوين المسلمين لهذه "المذبحة المزعومة " أن رواتها كلهم يهود قرظيون، منهم ثعلبة بن ابي مالك القرظي أحد "الناجين" وعطية القرظي، والمسور بن رفاعة القرظي، ومحمد بن كعب القرظي، ولافت أيضا أن أكبر مجمع يهودي كان يدون تاريخهم ومحنهم والمسمى "رأس جالوت" في بابل بالعراق كان نشطا في الفترة التي دون فيها بن إسحاق وغيره هذه الأحدث ولم ترد فيه إشارة واحدة إلى هذه "المذبحة"، وفي العصر الحديث كتب اليهودي الاسباني سمايل اسكوى المتوفى عام 1551 كتابه عزاء عن بلاء بني إسرائيل ولم تريد فيه كذلك أي إشارة لما جرى لبني قريظة، وهو ما حدى بالمؤرخ الهولندي منتغمري وات في كتابه "محمد في المدينة" إلى اثارة تساؤلات حول عدم ذكر المصادر اليهودية لهذه الحادثة مشككا في صحتها.

المقل من المصادر المعتمدة يقول إن قتلى حروب النبي (1200) غير أن أصواتا مسلمة خافتة ومهمشة بل تكاد تكون غير معروفة ذكرت روايات تبدو عند التحقيق اقرب إلى الصحة حول اعداد الذين قتلوا خلال تلك حروب، فقد كان الرسول نفورا من سفك الدماء، فالمؤرخ حميد بن زنجوية المتوفى عام (251) والذي وثقه المحدث احمد بن حنبل، قال في كتابه "الأموال" أن جميع من قتل في حروب الرسول صلعم من الطرفين (386) من المشركين (203) ومن المسلمين (183) وذهب حميد الله الكشميري[101] في كتابه " ميادين القتال" إلى أن جميع من قتلوا كانوا (150) وهذه الأرقام اقرب برأي للصحة فمن المعلوم أن المؤرخين والمحدثين في مواطن عديدة يذكرون أن شخصا ما قتل في معركة ما وتجد في نفس الكتاب في أحداث متأخرة عنها دورا لنفس الشخص فيها.

إن استمعنا بتدبر لما ذكر القرآن عن غزوة بني قريظة لعرفنا أن مذبحة لم تحدث وأن العدد قليل قال تعالى ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا**[102]﴾ **معلوم أن** الفريق يطلق على جماعة محدودة، افرادا قليلون، وواضح من سياق الآية أن الذين قتلوا هم الزعماء وقادة المؤامرة والغدر ونكث العهد الذي كان بينهم وبين النبي وليسوا الجميع، والفريق الثاني منهم أُسر ، والاسر في اللغة يطلق على المقاتلين ولا يطلق على المدنيين من نساء وأطفال وغير المعنين لأنهم يسمون بالسبايا، وحتى ابن إسحاق الذي ذكر الاعداد الكثيرة من القتلى لم يذكر غير سبعة عشر اسما من الذين قتلوا، ونقل عن الذهري أن عدد الذين قتلوا من بني قريظة كانوا أربعين.

لكن مما لا نستحضر ويبدو ان القدماء كانوا كذلك، أن دماء مسلمة كثيرة سفكت ونساء مسلمات سبين وتم بيعهن في أسواق النخاسة على يد حكام ظلمة، وحتى يكون فعلهم مرضيا ومنسجما مع الشرعة لفقت عشرات الجرائم لرسولنا تبرئة لهم، وتقديمهم كمستنين بهديه، وإلا

---

[101] حميد الله الكشميري يتقن 15 لغة وخصص حياته لدراسة سيرة رسول الله الف كتاب وثائق من العهد النبوي والراشدي وكتاب "ميادين القتال" توفى عام 2001

[102] سورة الأحزاب الآية 26

فكيف لعاقل أن يصدق قتل كل من انبت من بني قريظة، وينسى أن الحق قال [ولا تزر وازرة وزر أخرى].

فقير ويعد أزواجه بأن يمتعهن؟

القرآن المكي يخاطب محمدا الرسول معددا نعم الخالق عليه بالقول [ووجدك عائلا فأغنى[103]] ولم يقل وجدك فقيرا، والبون شاسع بين الوصفين، فقد تكون عائلا ولست فقيرا واغناك بأن سهل لك سبل المعاش والانفاق على عيالك، ورزقك من حيث لا تحتسب، وطبعي ان يكون عائلا فهو ينحدر من بيت السؤدد واطعام الجائع، ورث ذلك كابرا عن كابر، وأغلب اتباعه من المعدومين ، واتباعهم له زاد الضغوط المعيشية عليهم لثنيهم عن الدين، ، فقد حُوصرت عائلته النبيلة ثلاث حجج لثنيها عن نصرته وحمايته، ولو كانوا فقراء لقضى عليهم الحصار حيث لا يبيعون ولا يبتاعون، ولم يُسجل المؤرخون أن جهة ما حاولت ولو تهريب مقتات لهم، ولم يسجلوا ان هذه العائلة الكبيرة التي هاجر جلها فيما بعد الى يثرب كانت بحاجة لمساعدة في رحل نقل او مؤنة انفاق في الطريق، فحتى صاحبه الوفي الباذل لماله، نجد تضاربا في الاخبار حول مساعدته في الرحلة المباركة إلى يثرب، هل هو من اشترى الرواحل للهجرة من ماله؟ أم كلفه الرسول بأن يتولى عملية الشراء عنه ودفع الرسول من ماله أثمانها، تماما كما نجد نفس الجدل حول العبيد، المشهور من روايات السنة أن الوفي اشتراهم ، وآخرون يقولون بل تولى عملية الشراء ودفع الرسول الأثمان لأن المشركين لا يقبلون بيعهم له مباشرة؟.

القرآن المدني ينسف فرية صفة الفقر عنه عند تخييره ازواجه بين الفراق والبقاء [يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا [104]] مما يمتعهن لو كان فقيرا يامن رهنتم درعه عند يهودي مدين له؟

---

[103] سورة الضحى الآية 8

[104] سورة الأحزاب الآية 28

زواجه بقاصرة كيف نصدق؟.

من الصعب استيعاب عالمية الإسلام وقابليته للتطور عبر العصور – فيما نعتقد- ما لم يُنزع زخرف القول عن تاريخ المسلمين، وتُشنف آذان عبدته بأنه أحداث صنعها بشر، ثلة منهم مؤمنون صادقون مخلصون يخطؤون ويصيبون، وأكثرهم للحق كارهون، وأن يُفصل لهم البون الشاسع بين تاريخ الفتوى البشرية التي جاءت عبر العصور استجابة لحاجات مجتمعات المفتي أو المجتهد، والتي هي في الجوهر رأي محكوم - كأي عمل بشري - بحالات أصحابه النفسية وخصوصيات مجتمعاتهم وخصوماتهم المذهبية، وعلاقاتهم بالحاكم، وبين كل هذه الأبعاد انسجامهم مع البيئة الثقافية السائدة التي يتحركون فيها.

في زمن الخصومات العبثية المنتصرة لكل ما "وجد عليه الآباء" أصبحت كل دعوة لمراجعة الموروث أو نقد جوانبه المخالفة والمتناقضة مع سنن الخالق التي لا تبديل لها في كونه، وتبيان الاعوجاج البين في بعض مسلماتها، تواجه بألسنة حداد تسطوا على كل مخالف مشهرة سلاح التنفير والتحريض وتُهم المروق من الملة، لا يرغبون إلًا ولا ذمة لمن يقترب من عرين الأسلاف جاعلينهم جزءاً من الدين، هم الوحيدون المخولون تبيان ما سطروا، وحدهم المنافحون عما اقترفوا من سيء عمل بينٍ فيجعلونه مناقب سيؤجرون عليها.

ومع ذلك سننازلهم في عٌرنهم مناقشين باقتضاب قضية من محاذيرهم "المقدسة" حيث أراها قمينة بأن يماط اللثام عنها خاصة في هذا الظرف، وقد يراها غيري خارج السياق، وأراها ملحة جداً، ويراها هو غير مجدية، فالف شكر لمن لعنني بسبب اثارتي لها، وضعفه لمن اطرى، ملقيا إلى مسامع كل مسترق للغة العقل الخافتة، والمُتهم لِلُغة العاطفة المغشوشة أن بعض مسلمات التراث المشهورة –المتجددة- هي من المفتريات المتعمدة لتشويه سيرة رسولنا و قد لامستها أصابع الاستبداد المعرفي وبصمتها بطابع اللامعقول الذي طبع الكثير من جوانب سيرة المبعوث ليتمم مكارم الاخلاق منذ فجر تاريخنا، مدعومين بسند قوي من ظلمة متحكمين لا يريدون للمخالف أن يكون سوى مباح الدم .

إنها قضية ترتب عليها وعبر العصور حيف شديد لأقدس مقدس في وجداننا معاشر المسلمين،(محمد صل الله عليه وآله وسلم) وسألج نفقها الممتلئ بالأفاعي، بطرح سؤال عن عمر السيدة عائشة عند زواج النبي الأعظم بها؟ هل هو ست سنوات عند العقد، وتسع عند الدخول كما تزخر بذلك جل كتب الرموز؟ أم أن هناك في تلك الكتب نفسها وما سطرت أيدي مؤلفيها ومصححيها ما ينسف هذا الخبر بوعي كانوا ينتبهون إليه وبسبب ثقل اكراهات زمانهم لا يستطيعون حيلة؟، فعبارات متفق عليه وصحيح لها مفعول تخديري لا يحب الجل مقاومته، فأن يكون رسولنا تزوج قاصراً قبوله أهون عندهم من رد -حتى لا أقول الطعن- فيما صحح "" ثقاتهم "!!

أشهر المحفوظات تقول إن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله عقد عليها وعمرها ستة اعوام، ودخلت بيته الشريف وعمرها تسعة أعوام، هكذا في صحيحي البخاري ومسلم من طُرق عن هشام عن أبيه عروة عن خالته عائشة ، فالحديث سنده صحيح وفق منهج البخاري ورفيقه مسلم ومقليدهم في تصحيح الأخبار، وهذا يعني أنها ولدت بعد البعثة بأربعة أو خمسة أعوام، وقد تمسك به المفتون، وللمؤرخين نقولات تنافيه كما للبخاري نفسه روايات في نفس الصحيح تنسف هذا الخبر من أصله.

القول الثاني "من المخفيات " لأقل شهرة والأقوى أدلة فيه أن العقد تم وهي بنت أربعة عشر عاما، و الدخول بها تم وعمرها ثمانية عشر عاما ، وهو ما يعني أنها ولدت قبل البعثة بأربعة أعوام تقريبا ، ولهذا الخبر أدلته من البخاري نفسه، وفي صحيحه تصريحا وليس تلميحا، من تلك الأدلة ما نقل عن عائشة أنها قالت لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب الآية الكريمة [سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر].

والجارية كما في المعاجم القديمة هي الفُتية من النساء أو الشابّة، حسب بن سيده في المحكم ، اما ابن منظور فيقول: "يطلقون الجارية على البنت في أول شبابها حيث تجري جيئتا وذهابا" وعلى هذين التعريفين يكون عمر عائشة عند نزول قوله تعالى [سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر [105]] على القول الأول عمرها عامان وتلك لا يقال لها جارية، ويستحيل أن تعقل أمورا حدثت عام

---

[105] سورة القمر الآية 45

ثمانية، وأما على القول الثاني فإن عمرها وقت نزول الآية في حدود اثنتي عشر سنة، وهذا ينسجم مع معنى الجارية في اللسان، إضافة إلى كون هذه الآية أطبق جل المفسرين وعلى رأسهم القرطبي على أنها نزلت قبل بدر بسبعة أعوام " أي قبل الهجرة بخمسة وبعد البعثة بثمانية أعوام، فلو كانت عائشة ولدت عام ستة او حتى اربع بعد البعثة كيف يصح خبر البخاري هذا عنها؟.

خبر آخر رواه البخاري عن عائشة قالت فيه "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان بالإسلام، فلما ضيقت قريش على المسلمين خرج أبو بكر مهاجرا إلى الحبشة حتى إذا بلغ مكانا يسمى برك الغماد لقيه ابن الدغنة.." وقد اقنعه بالعودة إلى مكة والخبر طويل ومشهور ووجه الاستشهاد به أمران :

الأول أن الطفل لا يدرك اختلاف أديان الناس من حوله في العادة قبل سن الخامسة وما فوقها على أقل تقدير ، وعلى افتراض ولادتها في العام الرابع بعد البعثة وكان أول إدراكها لما حولها في العام الثامن لكان قولها "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان بالإسلام " غير ذي فائدة، لأن الإسلام في تلك الفترة قد انتشر حتى خارج مكة ، ومعلوم أن أبويها من السابقين إلى الإسلام، ولكن إذا كان مولدها قبل البعثة بأربعة أعوام وكان أول وعيها بما حولها في العام الأول من البعثة يكون لهذا القول فائدة أي أن بداية وعيها لاحظت اختلاف دين أبويها عن محيطهما الوثني وهذا مما يؤكد أنها ولدت قبل البعثة بنحو أربعة إن لم تكن أكثر .

وثانيهما أن قولها "فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا إلى الحبشة" صريح في أنها كانت إذ ذاك واعية لهذا الحدث ، و لو كانت ولدت في التاريخ الذي اعتمدوه لما كان ممكنا لها أن تدرك ما حدث في أوائل العام السادس لأنها في عامها الثاني، ولكن إذا كانت قد ولدت قبل البعثة بأربعة أعوام فهذا يعني إمكان إدراكها لذلك بوضوح.

خبر آخر عند البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال -عن أحداث يوم أحد- " لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما مشمرتان أرى خدم سوقيهما تنقزان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها، ثم تجيئان فتفرقانها في أفواه القوم، ورواه مسلم "تنقلان القِرب [106]".

---

[106] البخاري الصحيح (2880)

قال الخطابي في كتابه أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري" قوله تنقزان معنى: النقز الوثب، وأحسبه تزفران والزفر حمل القِرب الثقال ويقال للقربة نفسها الزفر[107]" فعلى القول الأول يكون عمرها يوم أُحد تسعة اعوام، وعلى القول الثاني تسعة عشر عاما وعليه فإن القول الأول لا يستقم لأن من كان عمرها تسعة أعام لا تقوى على حمل القرب الثقال لتفرغها في أفواه المقاتلين ثم ترجع وتحملها بخلاف من لها (19-20) عاما.

كيف تحدث المؤرخون عن مولدها؟

جاء في سيرة محمد بن إسحاق خلال حديثه عن أسماء أوائل من أسلموا قال "ثم أسلم ناس من قبائل العرب، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، واسماء بنت ابي بكر، وعائشة بنت أبي بكر وهي صغيرة [108]" وهذا نص صريح في أنها أسلمت في فترة الدعوة السرية لأن من ذكر اسلموا فيها، والقول بأنها ولدت بعد البعثة واضح أنه لا يستقيم أصلا.

أما الطبري فقال في تاريخه " تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى فولدت له عبد الله وأسماء، وتزوج أيضا في الجاهلية أم رومانه بنت عامر فولدت له عبد الرحمن وعائشة، فكل هؤلاء الأربعة من أولاده ولدوا في الجاهلية" نص تاريخي آخر صريح في أن عائشة ولدت قبل البعثة النبوية.

وروى ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك عن عائشة قولها إن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون رضي الله عنهما لما توفيت أمنا خديجة عليها السلام قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي رسول الله، ألا تتزوج؟. قال ومن من؟. قالت إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا قال فمن البكر؟. قالت: عائشة بنت أبي بكر قال ومن الثيب؟. قالت سودة بنت زمعة. قال: فاذهبي فاذكريهما علي، ولا يعقل أن تخطب لرسول الله طفلة عمرها أربعة اعوام في هذا الظرف ، لكن إذا كانت بنت أربعة عشر عاما فهذا معقول، لأن هذه الأدلة والقرائن تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج عائشة وعمرها ثمانية عشرة عاما ,ولا ننسى أنها كانت مخطوبة لجبير بن المطعم.

---

[107] حمد بن محمد الخطابي اعلام الحديث شرح البخاري ط الأولى 1988 جامعة أم القرى

[108] سيرة بن إسحاق المجلد الثاني ط دار الكتاب العليمة بيروت2004 ت

دليل آخر روى ابن عساكر في تاريخ دمشق [109] أن أسماء بنت أبي بكر أكبر من عائشة بعشرة أعوام، وروى أبو نعيم في كتابه معرفة الصحابة في ترجمة أسماء أنها ولدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين عاما، وتوفيت عام ثلاثة وسبعين، ولها مئة عام، وقال ابن الأثير في أسد الغابة, أن أسماء ولدت قبل التاريخ – أي الهجرة- بسبعة وعشرين عاما وهو ما يتفق مع ما ذكر أبو نعيم ، ويعضضه قول بن عبد البر في الاستيعاب "وتوفيت أسماء بمكة في جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين، وعمرها مئة عام، وهي أكبر من عائشة بعشرة أعوام".

ويؤكد هذه الروايات في ضبط عام ولادة أسماء ما روى عنها أبو نعيم أنها قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، ما منكم اليوم أحد على دين إبراهيم غيري، وقد توفي زيد بن عمرو وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين –تقريبا-، كما رواه ابن سعد في الطبقات، أي قبل الهجرة بثمانية عشر عاما، فيكون عمرها وقت سماعها لهذا الخبر في حدود تسعة إلى عشرة أعوام لأن من يضبط مثل هذه الأمور لا يكون عمره غالبا أقل من هذا.

واضح أن عائشة ولدت قبل البعثة بأربعة أعوام، وعقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من البعثة وعمرها أربعة عشر عاما، قبل الهجرة بثلاثة أعوام، وتزوجها في أواخر العام الأول او بداية الثاني بعد الهجرة وعمرها ثمانية عشر عاما.

من هذه الأدلة يتبين أن "الخبر الوارد في تحديد عمر عائشة بستة اعوام يوم العقد وبتسعة عند الدخول مخالف لنصوص أقوى منه ومخالف للوقائع التاريخية الثابتة، فهو من أوهام المحدثين ، خاصة وان الرواة يهتمون بصحة السند أكثر من اهتمامهم بالنص والوقائع التاريخية"

لا تفسير لمقولة تسعة اعوام سوى أن قصور الملوك كانت ممتلئة بالسبيات القُصَر فزوروا لهم هذا الخبر الذي يظهر النبي صلى الله عليه آله وسلم متزوجا بطفلة، خاصة وأن عروة بن الزبير كان من اخلص ندماء عبد الملك بن مروان، وكان ابنه هشام من اخلص أصدقاء أبي جعفر المنصور ولهما الكثير من الروايات المسيئة إلى الجناب الشريف.

---

[109] ابن عساكر تاريخ دمشق دار الفكر النشر 1995

والمشكلة أن الغلاة لا يحسنون الدفاع عن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ولا يتركون غيرهم يدافع عنه، كما أنهم لا يقبلون أن يكون رواتهم يكذبون لكنهم يقبلون أن تكون عائشة كانت تخرف".

ولا تقف الإساءة لجنابه عند فرية الزواج من قاصرة بل تتجاوز الى عملية لا يشبه بشاعتها سوى تناقض صياغتها، في مشهد مفزع يقدم رسولنا كاتجار رقيق من أجل شهواته الجنسية لنستمع لهذا الخبر الموثق في "اصح الكتب وأكثرها شهرة وتقديسا" ؟! عن أنس بن مالك قال : اشتَرَى النّبِيُّ صفيَّةَ بسبعةِ أرؤسٍ (أنفس) قالَ عبدُ الرَّحمنِ : اشتراها مِن دِحيةَ الكلبيّ أي أعطاه سبعة عبيد وجوارٍ بدلها تطيبًا لنفسه بعدما تم عقد البيع كما جاء في صحيح مسلم الحديث (١٣٦٥) - ابو داود (٢٩٩٧) - ابن ماجه (٢٢٧٢) وعن أنس ايضا قال : (قَدِمْنَا خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيهِ الحِصْنَ ، ذُكِرَ له جَمَالُ صَفِيَّةَ بنْتِ حُيَيّ بنِ أخْطَبَ ، وقدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وكَانَتْ عَرُوسًا ، فَاصْطَفَاهَا النبيُّ لِنَفْسِهِ .أخرجه البخاري (٤٢١١) ، ومسلم (١٣٦٥) -وعن أنس قالَ : (فأصَبْنَاهَا عَنْوَةً فَجُمِعَ السَّبْيُ فَجَاءَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ فَقالَ : يا نَبِيَّ اللَّهِ أعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ ، قالَ : اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً فأخَذَ صَفِيَّةَ بنْتَ حُيَيٍّ ، فَجَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ فَقالَ : يا نَبِيَّ اللَّهِ أعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ، لَا تَصْلُحُ إلَّا لَكَ ، قالَ : ادْعُوهُ بهَا فَجَاءَ بهَا ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهَا النبيُّ قالَ : خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا النسائي (٣٣٨٠)

يعني أعطاها لدحية ، فقالوا له : كيف تعطيها له ، وهي جميلة وبضاعة ما تصلح إلا لك .. فقال : صيحوا لدحية يردها ، فلما نظر إليها قال : هذه لي ، وأنت يا دحية خذ لك واحدة غيرها الخرافة الأولى تقول: اشتراها منه بسبعة أنفس ، والثانية تقول بأنه قال له : خذ لك غيرها - وهذا تناقُض !!

فكل زواج له وراءه قصة لا تليق، بدءا بالسيدة المجتباة، أمنا خديجة عليها السلام حيث كان الدافع نفعي فقط كما يقولون ، وزينب بنت جحش التي يخيل للقارئ أنه انتزعها من زوجها لأنها اعجبته حيث رآها سافرة فوقعت في نفسه، وصار من قواعدهم أن من أسباب حرمة المرأة على الرجل إن هي وقعت في قلب النبي تصبح حراما على زوجها لأن ذلك من خصائصه،

وصفية بنت حيي بسبب جمالها الفاتن اشتراها بسبعة عبدان، أو انتزعها ممن وهبها له!!،

هكذا تتحدث أصح واقدس كتب التراث التي كُتبت في القرن الثالث الهجري، ورويت عن الثقات بالتسلسل عن الصحابة، عن صاحب الخلق العظيم المبعوث رحمة للعالمين البريء من كل الخرافات والإساءات المنسوبة إليه.

خيرية القرون أم خيرية الأقران؟

في اطار بحثنا لتنزيه سيرة ومسيرة سيدنا رسول الله مما رسخ في الأذهان حولها من سيء قول وعمل مشين ، بأقلام لها رمزيتها ولو عن غير قصد من كتابها، فإن مقولات شبه مسلمات لعبت دورا كبيرا في ذلك النشاط المعادي لرسولنا، منها أن قرونا ثلاثة مزكاة من عاش فيها فهو خَير صادق عادل واجب الطاعة والتقليد في الدين والتصديق في الاخبار، وذلك لمنع التطاول أو حتى التشكيك فيما كانت السلطة تخطط له من رمي جرائم اسلافها على سير المصطفى، فاتهموه بأنه اغتال وأمر بقتل لائذين بأستار الكعبة، لأنهم قتلوا بن الزبير داخل الكعبة، واحدثوا خبرا جعلوه حديثا بأن مكة لا تعيذ مجرما، والرسول حرم قطع شجرها! ولم يتذكروا أن القرآن قال عن الحرم [ومن دخله كان ءامنا] فكيف يأمر بقتل متعلق بأستارالكعبة ؟ وزورا مذبحة بني قريظة المخالفة احداثها في كتب التراث لما ورد في سورة الأحزاب المتحدثة عنها، لأن رمزهم معاوية اباد فخذا من همدان وسبى نسائهم المسلمات قال بن عبد البر في حديثه عن بوائق بن ابي ارطأة والي معاوية " واغار على همدان وسبى نساءهم .. فأقمن في السوق وكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام وقتل أحياء من بني سعد [110] ".

[110] سيدي محمد بن جعفر أجراس الرعب من التكفير الى التفجير ص 216ط الثانية دار شمس للنشر والتوزيع العراق

وكذلك زعمهم بأنه صلوات الله عليه وآله صفى خصومه بالاغتيالات مثل كعب بن الأشرف النضري، لأن رمزهم معاوية صفى العشرات عن طريق السم منهم سيدنا الحسن عليه السلام، وعبد الرحمن بن ابي بكر، وسليمان بن خالد بن الوليد، وهو صاحب مقولة "إن لله جيشا من العسل" ولتغطية على قتلهم وتنكيلهم حتى بالنساء زورا أنه أمر بقتل مغنيات كن يغنين بهجائه، لأن رمزهم قتل " حماد الصفرية امرأة زاهدة من العباد خارجية المذهب صلبها زيادة بن سمية عارية وهو والي معاوية على العراق [111]"

ليس فيما نزل على محمد من القرآن أن الله يصطفى عباده على أساس أنهم عاشوا في زمن معين؟ رغم أنها من المسلمات التي يردد مغفلو الوعاظ وسدنة التراث، والتي لا أمل يرجى من تصويبها ،خبر يرفعونه إلى المجتبى مفاده أن قرونا ثلاثة أهلها خيار الامم ومزكون من الزلل وما بعدهم خلف أضاع الصلاة واتبع الشهوات هكذا تلقن هذه الخرافة للأجيال، وبها يحتج الفقهاء لتزكية هاماناتهم، وبها تتزين بعض مدوناتهم الفقهية والحديثية جاعلين منها ترسا يقي شيوخهم من رجال البلاط وملوك الليالي الحمراء، والمجالس المكتظة بالمخنثين وكؤوس الخمور ، والأيدي الملوثة بدماء الأبرياء والأتقياء(لأنهم من القرون المزكاة).

لكن هل صدر هذا القول من الصادق الأمين، وبهذه الصيغة وهذا المعنى الذي أريد له ؟ أم أن السلطة وعلمائها تلاعبوا باللفظ والمعنى؟ ولِمَ توقفوا عند ثلاثة قرون علماً بأن راويه شك في العدد بين الثلاثة والأربعة، إضافة إلى مدة القرن "الزمنية" كم سنة هي عند السلف ؟.

نعتقد أنها أمور تحتاج المراجعة وإعادة النظر فالخبر أدخل الأمة في محنة تزكيةٍ على أسس زمنية، عكس المنهج القرآني القائم على تزكية العمل فقط ولا عبرة للظرفية فيه.

سنحاول اثارة بعض الاستشكالات حول حديث خير القرون هل يتعلق بالزمن أم بشيء آخر، بادئين بذكر خلافاتهم حول المدة التي تسمى "قرنا " والتي هي عند الحسن البصري عشر سنين ، وابن سيرين والنخعي يريان أنها أربعين سنة ، ولهما سند في خبر ضعيف عن أنس

---

[111] سيدي محمد نفس المرجع ص 227

بن مالك جاء فيه "أُمَّتِي على خَمْسِ طبقاتٍ فأربعونَ سنةً أَهْلُ بِرٍّ وتقوى ، ثم الذين يَلُونَهم إلى عشرينَ ومائةِ سنةٍ أَهْلُ تَرَاحُمٍ وتَوَاصُلٍ، ثم الذين يَلُونَهم إلى سِتِّينَ ومائةٍ أَهْلُ تَدابُرٍ وتقاطُعٍ، ثم إلى الهَرْجِ والمَرْجِ، النَّجاءَ النَّجاء" ولا يخفى عدم صحة هذا الخبر لأن الهرج والمرج ظهرا قبل هذا التاريخ بكثير مع مقتل الخليفة عثمان أو حتى قبله فما يعرف في التراث بقتال مانعي الزكاة كان بداية الهرج.

أما الرأي الذي يرى بأنّ القرن مئة سنة، فقد ورد عند أحمد بن حنبل والبيضاوي والعيني، وبن حجر العسقلاني ، وبن عبد الملك ، وقد قد اعتمد أحمد أثراً عزاه لعبد الله بن بسر مفاده أنه قال "وضعَ رسولُ اللَّهِ - صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ - يدَه على رأسي فقالَ يعيشُ هذا الغلامُ قَرنًا" فعاش مئة سنة ؟ .

وذهب بن عبد البر إلى أنّ القرن مئة وعشرون سنة، وجماعة أخرى رأت أنّ القرن لا يُقدّر بالسنوات، فهو يطلق على الفترة التي يجتمع فيها قوم معينين في زمن معين، ويفترقون بالموت وينتهي زمنهم ، ثم يأتي من بعدهم أقوام آخرون ويُشكّل كل قوم قرناً، فإذا انقضى العصر سُمّي قرناً، وقد نقل الواحدي هذا الرأي عن الفخر الرازي.

وشبيه بهذا الرأي ما قال بن حجر المكي من أنّ القرن "هم أهل الزمان الواحد الذين يشتركون في أمر معين"، ويقال أيضاً "إنّ القرن هم الأشخاص الذين اجتمعوا في زمن نبي معين أو رئيس ويكون السبب في اجتماعهم على مذهب ما أو ملّة محددة، وقد ورد عن بن الأثير أنّ القرن هو أمة معينة تكون قد عاشت في عصر من العصور، فكلما انقضى عصر وذهب سمي أهله قرناً سواء كان العصر طويلاً أو قصيراً" .

هذا جزء من خلافاتهم حول المدة التي تسمى قرنا، وباختصار نعرج على تعريف القرن في لسان العرب لننظر هل له علاقة بالزمن أصلا؟ ثم نتابع بعض الآيات التي ورد فيها لفظ القرن هل يدل فيها على الزمن ، لنخلص بعد ذلك إلى الصيغة المخفية للفظ الذي ورد عند أحمد بن حنبل في مسنده لأنها الصيغة أكثر انسجاما مع القرآن ولسان العرب من غيرها.

وردت مادة "القرن" في القواميس القديمة مرتبطة بأصل مادي لا علاقة له بالزمان، ففي لسان العرب القرن للثور وغيره :الروق، والجمع قرون لا

يكسر على غير ذلك وموضعه من رأس الإنسان قرن أيضا ، وجمعه قرون، وكبش أقرن: كبير القرنين، وكذلك التيس، والأنثى قرناء ، والقرن مصدر، ورمح مقرون : سنانه من قرن ، وذلك لأنهم كانوا يصنعون أسنة رماحهم من قرون الظباء والبقر الوحشي ، ولم ترد في القواميس للدلالة على الزمن.

اما في القرآن الكريم الذي تفصله الأغلبية على فهم رموزها فقد ورد لفظ القرن وجموعه بمعنى الجماعات المتجانسة مثل [أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك الآيات الأولى النهى] [وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا] [ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون] [ولقد ءاتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون] [وعاداً وثمودَ وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً] [ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين] [قال رب أنصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين].

فكل هذه الآيات تتحدث عن جماعات وأمم متجانسة أهلكت بسبب عتوها ونفورها فحق عليها العذاب والخراب والهلاك ، ولم يسجل التاريخ ولا القرآن العظيم أن الله أهلك أهل مئة سنة جميعا ثم بدء الخلق من جديد.

هذا للتنبيه فقط فالموضوع مثير لحفظةِ التراث ومغفلي الوعاظ المتغلبين - ننقل بعده صيغة الحديث المهجورة وحواضنه التاريخية لننير الميسم لمن له عقل سليم، لعل غريزة حب البحث والاطلاع والاكتشاف تدفعه لمتابعة الموضوع حتى يفيدنا بمعلومات أغزر وأعمق مما قدمنا ، منبهين إلى أن أول من ذكر هذا الخبر هو نبيط بن شريط الاشجعي في صحيفته المشهورة بهذا الاسم ولعل جل الصادحين ب"خيرية الزمن" والمتمسكين بها لم يسمعوا قط عن هذا الرجل ولا عن صحيفته بل يكفيهم أن صيغة "خير القرون" وردت عند البخاري ومتفق عليه ؟ ولعبارة متفق عليه ورواه الشيخان وقع شديد في نفوسهم التي تقبل رد النص القطعي – القرآن -

إن خالف ما ورد تحت تلك العبارة عند أسلافهم، الذين لا يعرفون في الأعم الشيء الكثير عن الكيفية التي كانوا يصنعون بها مادتهم العلمية (الحديث)، ولا عن دور الخصومات المذهبية في تجريحهم وتعديلهم.

بعد صحيفة نبيط ورد حديث أفضلية القرون عند أحمد بن حنبل في مسنده وهي على النحو التالي: حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَانِي الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.ثمَّ يَخْلُفُ بَعْدَهُمْ خَلْفٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ " .

وتشبه هذه الصيغة بعض ألفاظ مسلم في صحيحه (خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي) فالذين يلونه هم الأقرب إليّه في سبقهم ونصرتهم وصبرهم ، ونجد هذا المعنى في لفظ بن أبي عاصم في كتابه السنة " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أُمَّتِكَ خَيْرٌ؟ قَالَ: "أَنَا وَأَقْرَانِي" والألفاظ التي تدل على أن القرون مجموعات من سابقي أصحابه كثيرة.

إذاً فخير الناس أقرانه صلوات الله وسلامه عليه السابقون إلى تصديق الدعوة الذين واجهوا بسببها السخرية والأذى ، ورأسهم أهل بيته علي وخديجة وبناته وجعفر وحمزة وزيد بن حارثة وآل أبي هالة وأبو طالب وعماته أي محيطه الضيق الذي عانا معه التكذيب والبغضاء والفقر والحصار الخ، ثم الذين يلونهم في اتباع الهدى والتضحية من طبقة المستضعفين كبلال وآل ياسر، وصهيب وخباب ومصعب بن عمير العبدري وزنيرة ولبينة وغيرهم كثير ؛ يليهم الذين اجبروا على ترك الأوطان "مهاجرة الحبشة "؛ ثم يليهم أوائل مسلمة قريش والأنصار الذين لم يعذبوا ولم يُهجّروا ، لكنهم ذاقوا مرارة الذل وعاشوا أيام الضعف الرهيبة ولحقهم من الأذى والفقر بقدر أقل من المجموعات السابقة ، ثم خلف من بعدهم خلف عند التحقيق وترك العناد ونظرية عدالة الصحابة طلقاء قريش وحلفائهم من ثقيف وغيرهم من الذين دخلوا الإسلام للغنائم ودنياً يصيبونها يشهدون ولا يستشهدون و...الخ ويظهر فيهم السمن، ثم كان الهرج (وهو القتل).

وذهب أبو عمرو بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وإن قوله عليه السلام : "خير الناس قرني" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول. وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر .

وروى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي" . وفي مسند الطيالسي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر. قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتدرون أي الخلق أفضل إيمانا" قلنا الملائكة. قال : "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء. قال : "وحق لهم بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الخلق إيمانا قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يجدون ورقا فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيمانا" .

وروى صالح بن جبير عن أبي جمعة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال : "نعم قوم يجيؤون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني" .

وروى أبو ثعلبة الخشني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن أمامكم أياما الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثله عمله" قيل : يا رسول الله ، منهم ؟ قال : "بل منكم"

والحديث تصرف فيه الرواة عمدا فيما نعتقد، فالتفضيل على أساس زمني غير معقول صدوره من النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، خاصة أن زمنه ضم جميع اصناف البشر ، المؤمن الصادق ، والمنافق ، والمبدل والمرتد ، والبغاة ودعاة النار ، والله يفضل عباده على أساس العمل والتضحية، وإدخال الزمن كمعيار للأفضلية سلوك ورثه الامويون من جاهليتهم ، وبه قالوا للتغطية على ما فاتهم من الخير وهم له كارهون أصلا.

من هذا العرض الموجز نخلص إلى القول إن المراد بالقرن الجماعة المتجانسة من الناس ولا علاقة له بالزمن ، وقد أخرِجَ هذا الخبر من سياقه الذي أراد النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلَى آله للدفاع عن الظلمة والمنحرفين الذين ذمهم ، وعليه فإن حديث " خير الناس قرني"

هو حديث "خير الناس أقراني" عند احمد و (خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي) عند مسلم، وعند ابن أبي عاصم (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أُمَّتِكَ خَيْرٌ ؟ قَالَ: "أَنَا وَأَقْرَانِي").

ولا وجود لخبر خيرية الزمان عند الشيعة والمعتزلة ، فالشيعة يصرحون بفسق بعض الصحابة وردتهم ونفاقهم مثل دعاة النار، أي قتلة سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما بالنص المتواتر عند السنة، "تقتل عمار الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار" ، والمعتزلة منسجمون مع مبدأ العدل لإلهي الذي لا يمكن الجمع بينه وبين الأفضلية الزمنية، لأن المعيار عندهم هو العمل ، ويؤكد ذلك تبرؤهم من معاوية وقرينه عمرو بن العاص وجماعتهم ، كما قال الخياط المعتزلي رحمه الله في كتابه الانتصار أنهم لا يتبرؤون من ذلك الموقف أي البراءة من دعاة النار معاوية وجماعته

والمعتزلة في المجمل أقرب إلى الشيعة في موضوع الصحابة وتنزيه الله لأن مؤسسي التيار غالبيتهم أخذوا العقائد عن أهل البيت ولعل هذا من اسباب شيطنتهم في الفكر السني وقد نقل أبو هاشم الجبائي أن غالبية المعتزلة يفضلون عليا على الجميع ، باستثناء افراد قلائل جداً من معتزلة البصرة وهي كما هو معروف كانت مدينة عثمانية.

والنتيجة أن هذه النظرية السخيفة "القرون المزكاة" التي لا يقبلها عقل ولا منطق و التي تجعل الله سبحانه وتعالى يفضل عباده على أساس الزمن، لا يعترف بها بقية طوائف المسلمين خاصة أصحاب المواقف الواضحة من هذه القضايا ، مثل الشيعة والمعتزلة وأحرار السنة على قلتهم قديما وحديثا.

فالتفاضل عندهم بالأعمال الصالحات والسبق إليها فقط، فلا يصدق عاقل أن يكون غبار على وجه زعيم دعاة النار "معاوية" خلال بغيه على المهاجرين والأنصار من بدريين ورضوانين تحت قيادة أول موحد من الأمة يكون ذلك الغبار أفضل من عمر بن عبد العزيز؟ الخليفة العادل الزاهد ، معيد الصلاة إلى أوقاتها ومبطل لعن علي عليه السلام من خطب الجمع ، لأن عالم البلاط الأموي الشعبي قال ذلك؟ وأن يكون المبير الثقفي (الحجاج) عليه لعنة الله أفضل عند الله من محمد بن ادريس الشافعي

لأنه عاش في القرن الأول ؟ [افلا تعقلون] [مالكم كيف تحكمون] افيقوا وفكروا. كيف لم يتحدث القرآن عن القرون المزكاة وقد تحدث بإسهاب عن الصحابة مدحا وذما، وعرضا حتى لنفسياتهم ؟

هذا مما أحدثوا بعده

مذ نزل الوحي على رسولنا وهو يتحدث تلميحا وتصريحا عن لحظة النهاية، حتى قبل أن تكتمل اركان الوعد الحق وتترسخ مفاهيمه بعد أن استبانت لواحبه، في العهد المكي أخبر محمد رسول الله في القرآن بأنه ميت، وأن قادة الشر والصد عن الدعوة مثله سيلحقون به أو يسبقونه، وان ذلك ليس نهاية المطاف بل محطة، بعدها كلهم مبعوثون ومسؤولون، هو مسؤول عما بَلَّغ وهم عما بُلِّغُوا [إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون] لم يكن الملء الأعلى مصدقا ولا مهتما أصلا ببعث آتٍ بعد الموت تتبعه مواجهات تخاصمية حول ما جاءهم من الهدي.

وجاء القرآن المدني ليذكر المؤمنين بأنهم أيضا مسؤولون، عما سيحدثون بعد نبيهم الذي ترك فيهم كتابا واضح المنهج وبلسانهم، فقط عليهم أن ينتبهوا حتى لا تقوم عليهم الحجة بعد ان يفارقهم رسولهم، فلأن كانت بعض القضايا المهلكة والمسببة للعذاب ممكن ان تغفر لهم إنهم شاؤا ذلك لوجوده بينهم ولا استغفاره لهم [ولو انهم إذا ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفر الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما[112]] .

أما بعد أن يفارقهم فلا مستغفر لهم فليحذروا لأن الأمر مختلف ، فلأن كانوا في موطن أشتد فيه البأس وانتشر الخوف وارتعدت فرائص أهل الحجا والضراب وتذكرت خيول كُثر يمتطيها أشاوس "مرابطها" وظن فرسانها من شدة الهول ان الجون اشقرا، بسبب زلزال ذلك اليوم (احد)، وأن الوحي الذي جاء موبخا الفارين على فرارهم غير المكتمل الأركان المسموح بها حتى ينجوا صاحبه من أن يبوء بغضب الله المتوعد به الفارين خلال تداعيات أحداث معركة بدر إنهم فروا غير متحيزين ولا متحرفين [يأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم

[112] سورة النساء الآية 64

يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا على فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير[113]] رغم ذلك [عفا الله عنهم]

أخبروا كما اخبر الملء الأعلى كذلك بأن محمدا رسول قد خلت من قبله رسل وأنه سيموت كما ماتوا، لكن هل إن مات او قتل سينقلبون على اعقابهم بعده؟ وهل انقلابهم سيضر الله شيئا؟.

في لحظة حرجة أخرى ووقت ضيق كانت فيه التهيئة جارية لأعداد جيش أسامة لمنازلة الروم على تخوم يثرب واعادة الاعتبار للمسلمين بعد هزيمة جيش أبيه في معركة مؤتة، جُند للحملة جل الكبار بمن فيهم من يُقدمان كمستشاري الرسول الأعظم الأقربين أبابكر وعمر اللذين لا يستغني عنهما!!؟، المصادر خرساء حول تفسير تباطئهما عن الالتحاق بالجيش، البعض قال إنهما خرجا وأن عائشة أخبرت اباها بأن الرسول في وضع مودعٍ وأن عليه الإسراع بالعودة، رغم ان أخبار ليلة "الرزية" المنسوبة تسميتها إلى عبد الله بن عباس واضح منها أنهما لم يلتحقا بالجيش أصلا إضافة الى ما نقلوا من الحاحه عليه صلعم " انفذوا جيش أسامة ثلاثا ولم يفعلوا"؟

في تلك الليلة منعوا أن تكتبت صحفية، قال الرسول إنهم لن يختلفوا بعدها، وقالوا إن عمر كان حامل لواء الرفض، ونسبوا له كلاما في الصحيحين فيه جراءة وتطاولا على النبي (صلعم) لا يليق، واضح من تسلسل القصة أنه كان على دراية بفحوى الصحيفة التي عارض كتابتها، وانها كانت ستحمل اسم من سيتولى امر الأمة بعد نبيها اذ لا يعقل أن لا يوصي النبي وأن لا يبين لهم ما يتقون في ذلك الظرف الصعب ويرشدهم لما يفعلون.

ينسب لعمر كلاما نابيا في حق الرسول في تلك الحادثة مثل قوله " إن النبي يهجر (أي يهذر) وقوله كفانا كتاب الله" وكأن رسول الله ليس بأعلم بكتاب الله منه؟.

يقال إن من أسباب نجاح الانقلاب توفر عنصران: سرعة التنفيذ ومفاجئة الخصم، وقد توفرا مباشرة بعيد وفاة رسولنا - التي لم يحضرها سوى أهل بيته- حيث تداعى القوم الى سقيفة بني ساعدة، التي يقال إن الأنصار

---

[113] سورة الأنفال الآية 16

اجتمعوا فيها لتعين خليفة منهم، وأن القرشيين فاجئوهم وبقية القصة معروفة، وقد ترتب عن مخرجات السقيفة التي أحدثوا قبل دفنه احتكار قريش للسلطة ستمأة عام، وأقصت كذلك كل حلفاء رسول الله الأقربين، عترته، والسابقين من المهاجرين خاصة طبقة المهمشين، والأنصار، وقبيلة خزاعة عبية رسول الله وبني هاشم، ومكنت للطلقاء وثقيف واحلاف بيوتات اسلاف السلطة الجديدة قبل الإسلام.

لم يف الخليفة للأنصار بوعده في مقولة تعزى له مفادها " نحن الأمراء وانتم الوزراء" فلا مستشارا ولا قائدا ولا واليا منهم، عادت القبيلة في وقت مبكر لتتولي تسيير شؤون المسلمين وتصدرت الغنيمة والبحث عنها المشهد بدل العقيدة وبثها.

واضح من تسلسل الأحدث المدونة أن القبائل تفاجأت بتولي أمر الأمة شخصا من خارج بيت نبيها، وقد حضر قادتهم على ما يبدو خطبة غدير خم ، لذلك لم يرضوا بولاية غير من ولى رسول الله أو أحدا من اهل بيته حسب أعراف أهل تلك الأزمنة، رفضوا السلطة التي يشكون في شرعيتها، فأعلن عليهم الخليفة الحرب المعروفة في الادبيات الإسلامية بحروب مانعي الزكاة، ليكون بذلك أبو بكر أول من قاتل المسلمين وليس عليا كما هو مرسخ في اذهان الكثيرين، وهي حرب لم تكن مستساغة حتى عند أكبر مستشاري الخليفة عمر بن الخطاب الذي نقلوا عنه أنه قال له كيف تقاتل قوما يشهدون أن لااله الاالله وأن محمدا رسول الله ؟ وكان واضحا من رد الخليفة أنه قد اتخذ قرار حرب كل من يتمرد على سلطته، ومن اللافت أنه لم يفتح معهم باب التفاوض أو حتى معرفة سبب رفضهم إعطائه زكاة أموالهم، وصرفهم لها مباشرة على فقرائهم متمسكين بالآية [خذ من أموالهم صدقة] معتبرين أخذ أموال الزكاة خاص برسول الله لا بغيره وهو أمر وجيه كان يمكن ان يكون أرضية للتفاوض وتجنب سفك دماء المسلمين.

هذه الأحداث وما تلاها مهدت لتحالفات جديدة على خلفيات قبلية سابقة على الإسلام، وذللت الطرق لأعداء الدعوة السابقين إلى التموضع في أجهزة الدولة، وانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على الحكم، وتحويل بوصلة دين الرحمة إلى دين نقمة، ليس على الكفار بل على المسلمين، وتقديم سيرة للرسول الأعظم تشبه سير اباطرة بيزنطة

وفارس والحكام الظلمة أكثر منها سيرة المبعوث رحمة للعالمين ومتمم مكارم الأخلاق، ووضعت اركان دين موازٍ لما جاء به وما هو مفصل في القرآن، فلم تعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي هي الأمر الرباني للرسول لهداية الناس الأسلوب الأمثل والواجب اتباعه، بل أصبحت الدعوة تقوم على الاكراه وقتال كل من لم يخضع لسلطتهم وتسبى نسائه وتقسم أمواله، كأن القرآن لم يخاطب محمدا بأن لا اكراه على دين وأن مسألة اعتناقه اختيارية وأن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لأن الله لا يظلم أحدا، وهذا الدين يرفض الضغوط من أجل اعتناقه لأن ذلك يؤدي للنفاق.

لم يسجل مؤرخ واحد حسب ما اطلعنا عليه أن قائدا كتب لخليفة قائلا إننا بنينا من المساجد عدد كذا أو عينا فلانا كي يعلم الشعوب الجديدة امر دينها ، وإنما سجلوا فقط قولهم اصطفينا للخليفة بنت سيد القوم لجمالها وكمالها وقسمنا الأرض وأهلها على القادة، ثم نتحدث نحن الاغبياء بعد ذلك عن سماحة ديننا وكأنه حكم أصلا حتى تعرف سماحته؟ أو يعرف أن قلبا فتح له، وأن كل ما فتح باسمه حصون وخزائن.

ضاع الكثير مما نزل على محمد في القرآن وغيب الكثير من سيرته السمحة، ودجنت الأمة حيث لا تذكر في أدبياتها أن غالبية من تفاخر بهم وتسميهم فاتحين كانوا منحرفين عن الدين، وأن فترة الفتوحات كان الإسلام في داخل بلاد المسلمين ذليلا، علي يلعن على المنابر والحسين ذبح وعبد الرحمن بن حسان العنزي دفن حيا لأنه لم يتبرأ من دين علي، ومحمد بن ابي بكر حرق حيا في جثة حمار، والأتقياء بين قتيل ومختفٍ وسجين، أين هذا من دين محمد الذي وصف القرآن.؟

الخاتمة

موضوع رسولنا يحتاج منا جميعا مراجعات متأنية هادفة الى إزالة كل التشوهات المقصودة أو غير المقصودة أو التي جاءت استجابة لإخفاء أو تسويق فعل مشين قام به أحد المتمكنين من ملوك عهد ترسيخ الدين الموازي مع دولتي قريش الأموية والعباسية، والإضفاء الشرعية عليه، تُخلق حادثة مشابهة أو قابلة لان تعطي الانطباع بأنها فعل النبي فينسب له ما لا يليق بمقام النبوة، والمخالف للقرآن الكريم الذي تحدث عنه بإسهاب، عن جبلته البشرية، وعن مأمورات ربه له ونواهيه له ، وما يجب عليه فعله وما يحرم عليه فعله، فإذا وجدنا نصاً نسب لجنابه الشريف وهو مخالف لما أُوحي اليه فما علينا سوى طرحه وعدم نسبته له، علما بأن هذه النصوص كثيرة جدا، وهي أصل المشكلة، فكيف نصدق أن الآية تقول له [فاستمسك بالذي أوحي أليك] وتقول له أخرى [اتبع ما أُو حي اليك] ثم نجدهم ينسبون له عشرات الأحاديث المخالفة لما أو مر باتباعه والتمسك به ونقبل أنها صدرت منه؟.

وتكون البلوى كبيرة عند ما نستمع لما اسموه الناسخ والمنسوخ حيث عشرات الآيات بزعمهم منسوخة لا عمل لها لأن معناها نسخ وبقي لفظها، وأن أخرى نسخ لفظها وبقي معناها، -تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً- ،لأن عقولهم عجزت عن فهمها، أو أن حكامهم يريدون العمل بغيرها ، ولم يقلدوا أميرا المؤمنين عليا عليه السلام الذي نقل عنه في مواضع عدة أنه كان يرد على بعض الأسئلة بأن هذه الآية لم يأت زمانها بعد، وأمير المؤمنين مدينة العلم لا يستبق الأحداث، وهذا هو الفهم الصحيح للقرآن برأي.

ورغم اني لم اتعمق ولم اذهب بعيداً في نثر الكثير من التشوهات العالقة في الأذهان عن سيرة رسولنا، والمخالفة لما أخبر به القرآن عنه إلا أني نبهت وقرعت كما يقال بالعصا الطويلة الأولي النهى ومن لهم غيره على سيرة رسولهم أن يفكروا فيما ينسب له مما لا يليق بمقامه الشريف.

الخطب جلل، والاصطفافات ضد أي نقطة تخالف المألوف كبير، فصاحبه يصنف في احدى خانات معاداة الإسلام، يتهم بأنه أخذ أجرا على نقضه للإسلام بالتشكيك في سيرة رسوله المحفوظة بزعمهم والخالية من النواقص ..لو أنهم صدقوا السيدة عائشة فيما نقلوا عنها من قولها " كان

خلقه القرآن" وبحثوا أوامر القرآن له لا اكتشفوا الفرق الواسع بين أوامر القرآن له مع الاعمال التي ينسبون له.

والله اسال أن يتقبل مني هذا العمل الذي اردت منه ازالت بعض الشبهات عن السيرة العطرة.

المصادر"

القرآن الكريم

الصاوي

تفسير الصاوي على الجلالين دار الفكر بيروت 1993

تفسير الجلالين دار الفكر بيروت 1993

القرطبي.

الجامع الاحكام القرآن دار عالم الكتب الرياض 2003

سيرة بن إسحاق طبعة الكترونية

سيرة بن هشام المطبعة الخيرية مصر 1329

أبو الفرج علي بن إبراهيم .

- السيرة الحلبية- دار الكتب العلمية بيروت ط 1427ه

ابن عبد البر.

الاستيعاب في معرفة الاصحاب دار الجبل بيروت ط 1412
ابن الاثير.
اسد الغابة في أسماء الصحابة دار احياء التراث العربي بيروت ط 1996
ابن سعد.
الطبقات الكبرى دار الكتب العلمية بيروت ط 1990
المسعودي.
مروج الذهب. المكتبة العصرية صيدا ط 2005
ابن كثير.
البداية والنهاية دار احياء التراث العربي ط 1988
البخاري بردزبه.
كتاب الصحيح دار بن كثير دمشق بيروت 2002
مسلم القشيري النيسابوري.
الصحيح دار احياء التراث العربي بيروت 1424ه
احمد بن حنبل الشيباني.
المسند مؤسسة الرسالة ط 2001
الذهبي.
سير اعلام النبلاء مؤسسة الرسالة 2001
البلاذري:
انساب الأشراف دار الفكر بيروت ط 1996
ابن عساكر.
تاريخ دمشق دار الفكر ط 1996
أبو البركات.

شرح الحاوي الكبير طبعة الكترونية
القاضي النعمان بن منصور.
المناقب والمثالب طبعة مؤسسة الا علامي بيروت
الزمخشري .
ربيع الابرار وفصوص الاخبار طبعة مؤسسة الإعلامي بيروت
أبو الفرج الاصفهاني .
كتاب الأغاني طبعة الكترونية
إبراهيم ين محمد الثقفي.
الاستنفار والغارات طبعة الكترونية
الطبري:
تاريخ الرسل والملوك دار الكتاب العلمية بيروت 1407ه
جامع البيان عن تأويل آي القرآن دار التربية والتراث - مكة المكرمة - الطبعة: بدون تاريخ نشر
حمد بن محمد الخطابي.
اعلام الحديث
أبو القاسم علي بن احمد الكوفي.
الاستغاثة من البدع الثلاثة. طبعة الكترونية
المقريزي.
التخاصم والتنازع. طبعة الكترونية
أبو عبد الله محمد بن عمرو الواقدي.
مغازي رسول الله دار السعادة بحوار محافظة مصر ط الأولى 1948
أبو بكر ابن أبي عاصم .
الآحاد والمثاني الطبعة الأولى 1991دار الراية الرياض .

الطبراني.
المعجم الكبير. طبعة الكترونية
الحاكم النيسابوري.
المستدرك دار الرسالة العالمية الطبعة الأولى 2018 دمشق .
محمد بن هلال الثقفي
الغارات والاستنفار طبعة دار الأضواء بدون تاريخ
جلال الدين السيوطي.
الدر المنثور الناشر: دار الفكر – بيروت
القاضي النعمان بن منصور المغربي.
المناقب والمثالب طبعة الكترونية نشرت 2008
الزبير بن بكار.
اخبار الموفقيات طبعة الكترونية نشرت 2007
أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني.
معجم الشعراء دار الجبل للنشر والتوزيع.
ابن حجر العسقلاني،.
الإصابة في تمييز الصحابة 398/5.

الفهرست.

الفصل الأول

التمهيد بين يدي الوعد الحق

ممهدات الانقلاب الكوني.

شبه كيدية في السير التراثية.

ظاهرة التبني.

عاهرات ولدن حكاما

الفصل الثاني:

نحو تأمل اللحظة المفصلية.

لماذا سورة المدثر؟

رسولنا وأوائل تابعيه تهيئة نفسية وخلقية قرآنية.

ثلاث قضايا طغت على جل العهد المكي.

ثلاث تهم ينفيها القرآن ويثبتها التراث.

أمية كتابة أم امية ثقافة؟

الفصل الثالث.

الطريق إلى يثرب

حديث وأحداث طريق يثرب

من هم منافقو سورة البقرة.

محمد الرسول المعصوم أم المسحور"؟

محمد رسول الله والدماء.

فقير يعد ازواجه بأن يٌمتعهن؟

الزواج بقاصرة كيف نصدق؟.

خيرية القرون أم خيرية الأقران؟

الخاتمة.